أولاد أحمد

# تفاصيل



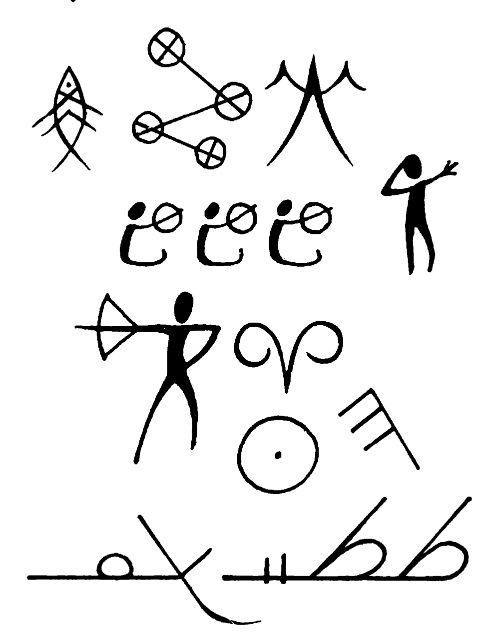
بيرم للنشر

# الإهداء:

إلى أمي و أبي، إعترافا بكلّ شيء

أولاد أحمد

# تفاصيل



بيرم للنشر

# تقديم:

# ضد الموت والموت الرمزي

بقلم سليم دولة

قالت العرب :

«يموت الفتى من عثرة بلسانه
وليس يموت المرء من عثرة الرِّجلِ
فعثرته من فيه ترمي برأسه
وعثرته بالرِجلِ تبرأ على مهل»

- 1 -

في غياب قانون يبيح مشاعة السلاح كان القلم ملجأه الوحيد حارسه الفذ من «تقاة الامة»..
معبده الذي لا يبارحه الا لصلاة موالية..
سبّابته التي يحلو لها دائما ان تَعْلُو على خراطيم الدبابات..
مقلاعه البدويّ العامرَ بخرز الحبيبات المنصرفات عنه.

منْ ركن الى ركن..
ومن صحيفة الى صحيفة.. كانت قصة الترحال :
ترحال هذه «التفاصيل».
ما من صحيفة عرّج عليها «**أولاد أحمد**» إلاّ ونالت نصيبها من الزجر، والحجز، والشماتة.
- «لابد ان تقنعوا هذا اللعين بالكفّ - للتوّ - عن الكتابة !».
تلك كانت أوامره :
أوامر **الرقيب** الدائمة لرؤساء التحرير، ولمديري الصحف، الذين اشتغل معهم **أولاد أحمد** بأجور بائسة لا تكفي حتى لشراء الورق والاقلام ! وتلك كانت رغبة «**إخوان بعضهم المسلمين**» : سفراء الله بتعبير نيتشه.. أولئك الذين وصل بهم التطيّر من كتاباته : شعرا ونثرا، الى حدّ الاعتداء عليه بالعنف، وتهديده بالقتل حتى

يموت غير مأسوف عليه..
مضيفين إياه الى قائمة «الملحدين، والزنادقة، والهراطقة، والكفرة» وفق تصنيف عجائبي ينوبون فيه رأسا عن إلهٍ ما من حجّة لديهم تثبت أحقيتهم بهذه الولاية.
يتطيّرون منه، ومن كتاباته، لكونه يؤمن بإله أجمل من إلههم.

- 2 -

منْ ركن الى ركن..
من صحيفة الى صحيفة..
من انتصار الى انكسار..
ومن انكسار الى انتصار... كانت «تفاصيل» **أولاد أحمد** تتخذ لها طقسًا زوربويًا يحكي بانوراما الغبار والدم، الحلم والوهم، أنصاف الانتصارات وأنصاف الإنكسارات.. مهددا بكتاباته الثابت / الراكد السلطوي إذ يشهّر باستبداد المطلق داعيا الى ممكنيات شاملة بأسلوب يمتزج فيه الاحتفالي بالجنائزيّ.
هذه التفاصيلُ - في تفاصيلها - تعريةٌ لكل خطاب أميريّ : سواء أكان قاعدا عليها : على سدّة السلطة، أو متشوفًا لها شبقا، أو متزاهدا فيها، أو مدبرا عنها.

- 3 -

لا غرابة، إذن، أن تكلّف هذه «التفاصيل» **أولاد أحمد** ثمنا باهظا إن مهنيا أو عاطفيا.
ألم يُسجن «نشيد الأيام الستة» لمدة أربع سنوات، وتحرق نسخه لمجرد تنبؤه بسقوط الامير :
*«يا ابن خلدون المدينةُ أضيق من خطاكْ*

*ولكم مررت ببرنسك الحديد*
*فساء ني زمني !*
*فاخرج من الوثن الجديدْ*
*واكتب الى الوثن المقابل ما يليق بحجمه :*
*قل ما تريدْ :*
*هذا حصانك واقفٌ*
*والكفّ من زمن ترحب بالغريب*
*قل ما تريد*
*فلنا المدى*
*وله الصديدْ. . . »*

ألم يسجن **أولاد أحمد** ضريبة لهذا القول «المنكّل» بالامير وبأولئك **المعلّقة قلوبهم في البلاط** ؟

- 4 -

إيلامُهم إيّاه شحذَ لغتهُ. . .
دفع بها الى الشفافية. . .
والقصووية. . . وأناقة القول البدوي حتى غدا أشبه ما يكون بأحفاده المتصوفة (الأجدادُ ماتوا ؟) : متصوفة الإنسان الكامل الناهد أبدا الى مطلق الحرية.

- 5 -

هذا الكتاب لا يشتمل على مجمل «تفاصيل» أولاد أحمد إذ كُبِتَتْ منها بعض «التفاصيل» التي قد تسير بالكتاب الى هناك : الى الحجز، والتخريق، والحرق، تمامًا مثلما حدث «للنشيد».

- 6 -

ألسنا في زمن إختبار حرّية القول ؟

حرية القول، إذن، ليست حقا طبيعيا كما يُرسل / يُشاع الخبر في المدينة ؟!

نعم. ولا.

«وبين "نعم" و" لا" تطير الأرواحُ».. كما جاء في سفر الشيخ الاكبر محيي الدين ابن عربي.

- 7 -

دُعـــاء:

اللّهُمّ قِ صَاحِب «النشيدِ» و«التفاصيل» شرّ من أحبّ أمّا أعداؤُه..

فهو عليهم لقديرٌ.

* سليم دولـة

تونس 28 /3 /1989

# فاتحة:

## مسوّدة وطن

نعم !

نعم !...لابد ان يكون ذلك كذلك.

وبلا حجة، وبلا دليل، الكتابة هي ان لا نكتب.

أن نتطير من السمق، والحبر، والورق، وننفي نفيا مطلقا كذبة كوننا نملك أيادي، وألسنة، وشفاه، تلك الكذبة التي لا تسندها سوى الوظيفة النرجسية للمرايا، وحاجتنا الى ان نفضل أنفسنا على الحيوان كلما لم نجد دليلا على أننا أفضل من الآلة، أو أكثر شأنا من الحجر.

ان نختار حبرا لا مرئيا لرسم حروف افتراضية لا تتشكل، ولا تنقال، الا باستعداد الجسد لان يتحولّ، في كل آن، الى رماد من أجل ان يكون موضوع الكتابة شكلا للوجود لا إستدعاءا لوجود غائب، ومغيب، لم نفعل شيئا لكي نُممكنَه أو نصير اليه.

ان ننتقل من معاهدة حسن جوار الألوانَ الى إعلان وحدة الالوان : من زرقة الحبر وحمرة الدم الى خلاصتهما المخلصة : الى البنفسجي : لون الانسان الخالص.

ان نقسط حروفنا على الناس حتى إذا جفنا، فرادى في البراري، أو قتلنا جماعات في الحروب... كان مجمل ما كتبنا كلمة منقوضة لا يفض مغلقها سوى الضالعين في علوم النكد وكبار متصوفة الحرية.

نعـم !

نعم ! ليسبق الحدسُ القانون.

الكتابة هي ان تكف ـ فورا ـ عن الكتابة.

ان نصمت.

ان تتملكّنا رغبة سبارتاكوسية في ان نمرّ، هكذا فجأة، الى ما بعد حقوق الانسان، الى مطلق الارادة البشرية، قبل رسم الحرف الاول، من الحرفين الاولين : من الكلمة الاولى التي لن تليها ثانية.

لا وقت للكتابة.
من يركّب كلمة يمتْ !
يخسر اللحظة الفجائية للخلاص.

تصوروا، اذا كان ممكنا ان تتصوّروا، ان سبارتاكوس ضيع وقته في الكلام عن حاله كعبد، وفي النواح عن حاله كعبد، مثلما يفعل مواطنو الدرجة الثانية، في النصف المظلم من هذا الكوكب، بطقوسية جنائز مربكة،، هل كان برابرة الرومان : أولئك الاجلاف المفطومون، كالكلاب، على مذاق الدم، سيفوّتون على أنفسهم فرصة التلذذ بتمزيقه، كلّية، وسط الحلبة ؟

هل كانوا سيحرمون الحيواني فيهم من مسك اللحظات الاكثر سادية في مشهد مطاردته وقتله ؟

لا وقت للكتابة.
من يركّب كلمة يموت !

ذلك درس تعلمناه من النحلة : حبيبتنا النحلة، بمجرد ان تتكلم، وتقول للمتطفل على عريشها : «ابتعد عنّي وعن عسلي»، تتهاوى وتموت.

درس مناقض تماما لدرس شهرزاد.

يا للوعي السلحفاتي بالزمن !

فتاة جميلة كشهرزاد، المفترضة، تضيّع ألف ليلة، وليلة، في الكلام. في تحويل حريرات النهار الى نقاط، وفواصل، واستطرادات ليلية لا تنتهي !

قلبٌ أنثوي مرتجف يؤثثه الموت الممكن كل ليلة، طيلة الف ليلة وليلة، دون ان يهتدي الى ان خلاصه مرتهن، على وجه الدقة، بالاستعاضة عن الكلام بعدم الكلام.

أو لم تكن قطرة واحدة من السم، في قهوة، اثناء حكاية عجائبية،

كافية لقتل شهريار، وبالتالي لاخراج شهرزاد من لعنة الكلام (العقاب) الى حق الصمت (الخلاص) ؟

وأية حجة تدعم الحجة القائلة بأن الكلام هو الذي أنقذ شهرزاد من الموت المحقق سوى ما يتوهم حجة على ان شهريار ينفرد بحق سبحاني في تقرير الكلام، والصمت على من يريده وكيفما يريد ؟!

مبالغة في مديح الصمت !

استقالة بالكامل !

تراجع عن المواقع !

ثلاثـة اعتراضات استعراضية،، لا نقبلها .

**أولا :**

لان الصمت ليس حاجبا للرذيلة.

وبما اننا اصبحنا نعرف، بحكم المسافة التي تفصلنا عن القردة، أن المتلصصين على مسودة الحرية هم الذين يهمهم ان يكون الانسان ناطقا في كل الاحوال، حتى يسهل عليهم إحباط جميع محاولات خلاصه، فاننا مدعوون لان نعرف ان الصمت هو النشاط الانساني الوحيد الذي لا يمكن التلصص على الكامن والممكن فيه.

**تاليا :**

لأننا لم نكسب حربا ، ولم نحتل موقعا ، حتى نُتهم بالإستقالة منه، أو بالتراجع عنه.

**وأخيــرا :**

لان اصحاب هذه الاعتراضات الاستعراضية الاعتراضية لم يقتلوا ، بكتاباتهم، أحدا ، أيّا ما كان : فكرة، أو عادة، أو نسقا ، ولم يقتلهم أحد ايا ما كان : نسقا ، او عادة، او فكرة.

والكاتب، بالتعريف الذي نحاول إذا كتب : يَقتُل أو يُقتل. يستوطن أو يُشرد .

يغزو أو يُغزى
يُدفن خارج بلاده أو تدفن فيه بلاده.
في احسن الحالات يُجن أو تُحرق كتبه.

ما من امكانية ليجرح فقط، أو يفقد ساقه فقط، أو يصاب بالزكام فقط، أو يشوه فقط، الا في الحروب الصغيرة والحقيرة الحروب اليميسارية المخجلة : حروب موظفي المعرفة وثوريّي الثورات العاطلة، حيث يقبل الكاتب، دونما مناقشة، ان يكون وفيا للتشريط الثقافي القائم، أو للذي سيقوم على مضامين مختلفة وأساليب مماثلة.

وذلك شرط السدانة الفكرية، شرطٌ لا تكمن خطورته في كونه يحوّل الكتابة الى قطاع خدماتي لبيع البديهة، المشكوك في بداهتها، الى الحس العام،، ويعرفها على أنها مصنع لاعادة انتاج الانتاج، بل في كونه يشجع على السكون بدل الحركة، وعلى الائتلاف بدل الاختلاف، ويموضع الحرية خارج الكوكب لتخويف الناس من هول تحققها في لحظة ما من صراعهم مع الانوات الذاتوية الحاكمة.

وحدهم الخائفون من الحرية يكتبون
يا كم يكتبون !

ويؤلفون جملا، فقرات، فصولا، كتبا، أعمالا كاملةً، مكتبات لا حصر لها، تستنسخ مكتبات لا حصر لها، دون ان يعوا أنهم يقلصون، بذلك، عدد الاشجار والنباتات (مصدر صناعة الورق) ويبشرون بالتصحر والمجاعة والطاعون.

وحدهم الخائفون من الحرية يكتبون، ويبيعون ما يكتبون، ويدفعون الضرائب عما يبيعون، أيذانا بأمية «الوعي الحانوتي بالعالم»، مثلما

يلذ للصديق مصطفى كمال فرحات ان يصف هدف الكتّاب الذين يدفعهم حَوَلُهُم الى الاعتقاد بانعدام الفوارق بين المحابر وآبار النفط، وبين الاوراق النقدية وأوراق الكتابة !

أما الذين يحاولون مسك اللحظات الناطقة في صمتهم فإن قبورهم محفورة في حرف ما من الكلمة التي لم يحتطبوا حروفها بعدُ.

ولان بعض شفاههم من نار، والبعض الآخر من كبريت، مثلما تقول الاسطورة فان مجرد نطقهم بأحد الاحرف الشفوية يعجل باحتراقهم.

لذلك تراهم يغرغرون الحروف الحلقية، تماما مثل الغرقى، الى ان تبلى حناجرهم من تكرار حاء الحرية الجارح، وغين الغربة المقيتة ساعتها يغربون.

وتصبح قبورهم مزارا للطيور ولمفاليس الارض.

# I

# وجدوها

مُغْرَمُونَ هذه الايام والليالي بالاثارة، وبمزيد الإثارة، على طريقة الصحف الإباحية التي تقلّ مبيعتها بمجرد نقل الصور العارية من الصفحات الاولى الى الصفحات الداخلية.

وآخر ما جادت به قرائحهم في هذا الميدان، بعد طول استذكار مفهومي، ان الشعب التونسي عربي ومسلم، وان من يقول بعكس ذلك سيكون مصيره التصدير مثل جميع البضائع الفلاحية الفائضة عن السوق المحلية.

ونحن لا نستغرب، بعد ان ذكرونا ببداهة هذه البديهة، ان يفاجئونا بعد ايام بأطروحات من نوع أن الارض تدور حقا ، وان ثمة فارقا إتنولوجيا ما بين العجل والشجرة، وان الماء على عكس الخمر، لا طعم سياسي له ولا رائحة.

وبما اننا نعرفهم بالشكل الذي يعرفوننا به نتيجة لضيق الجمهورية، من ناحية، ونتيجة للقدرات الاستعلامية المتبادلة والتي لا نقل فيها شأنا عنهم، فأننا نودّ نشكرهم على هذه الفرصة التي وفروها لنا للضحك بمنتهى اللياقة والأدب.

نضحكُ، لا لأننا لم نجد شيئا يضحكنا في فصول هذه المسرحية الكوميدية التي يتفرج عليها شعبنا بكامل الامتعاض والصبر، بل لانهم جاهزون أبدا لتمثيل كل الادوار التي تكمن غايتها الجمالية في جعل الجمهور ينسحب لتوه من قاعة العرض احتجاجا على التاريخ الشخصي لكل ممثل على حدة.

ولعل الدور الذي يلعبونه الآن هو الدور الوحيد في تاريخ المسرح الذي لا يحتاج اصلا الى جمهور، ذلك ان جمهورا محروما اقتصاديا ، واجتماعيا ، وثقافيا ، من حقّه في المواطنة، يفضل باستمرار فلاحة الاشاعة، دفاعا عن نفسه، على الذهاب الى مسرحية مُعادة بعنوان رئيسي :

ايها الجمهـور :
أنت هو الجمهـور
وبعنوان فرعيّ :

ان المصلحة الوطنية تقتضي ان نؤجل خبزك وحريتك لإثبات قوميتك ودينك اللذين لا جدال حولهما.

قد يعيبون علينا اننا عدميون، لا يعجبنا اي شيء واننا لم نربط منهجيًا بين دفاعهم عن عروبتنا وإسلامنا بالخطر الذي تمثله الحركة الأوصولية، في بلادنا، ولكن هذا اللوم مردود عليهم لكونهم يعلمون حق العلم أننا قاومنا الظاهرة الظلامية، بكل ما توفر لنا من أظافر، ووسائل أدبية وعقلانية، دون ان نضخم من حجمها أو نقلل من خطورتها، في حين لجؤوا هم الى المساهمة في تأسيسها، والى تضخيم حجمها لخلق أولوية في البلاد لا يجوز معها الا تأجيل المطالبة بالاولويات الحياتية التي لا أولوية عليها ولا أمن بدونها.

وهذه طريقة معروفة منذ القدم، وملخصها ان ثلاثية :
الخبـز
الحريـة
الأمـن

تنقلبُ - ترابيا - رأسا على عقب، كلما دخلوا في أزمة حادة ولم يجدوا في حركيتهم الجامدة ما يحركهم الى الامام سوى مزيد التوغل في الكلام الذي سرعان ما تنفضح نواياهم بين سطوره لكونه مجالنا الحيوي الذي لا نهزم فيه مطلقا.

وطالما اننا لسنا مهيئين لخوض أية مبارزة نعرف اننا سننتصر فيها مسبقا فانه يسوؤنا ان يصلوا بعد كم سنة من الكلام الى شعبة أخرى من الكلام إسمها : الكلام !

يسوؤنا ذلك لسبب أعمق من السجال وهوأن إقتصارهم على

بلاغية الكلام، وتناسيهم لمشاغل الشعب الحقيقية، ضرب من ضروب الهروب الى الامام، ونحملهم مسؤولية نتائجه كاملة لكونهم يتصورون باستمرار، وهذا خطأ طبعا، ان ملكيتهم لوسائل الموت والحياة ستجعلنا نخاف، باستمرار من النضال حتى تصبح هذه الحياة جديرة بالحياة، وهذا البلد جديرا بأن تمر الشمس يوميا على أزقته، وعلى مدنه وقراه، لتبارك جدارة إيوائه للانسان والحيوان معا في خاتمة هذا القرن الآفل والمبشر باللذي لا مناص منه.

بالحريـــة
أو :
بالحريـــة

# درس الشبيبة

هـل يريد الطلبة، بمؤتمرهم الخارق للعادة هذا ان ينغصوا على بلدنا الصغير غيبويته الكبيرة وأحلامه اللذيذة المؤسسة كلها على وعي حانوتي بالتاريخ ينزع، باستمرار، الى أسطرة العمل الفردي وتهجين العمل الجماعي نتيجة للخوف المتعاظم من الحرية ؟ أم يريدون، وهم الذين لم يبلغ احد منهم سن الرئاسة أو شرط النبوءة، ان نعود ثانية بمناديلنا الزرقاء الى مقاعد الدراسة حتى نتعلم من بياض طبشورهم سر التوحد حول المختلف، ومزية الاختلاف حول الذي لا شيء يدل ـ بداهة ـ على وحدانيته ؟

وسواء أرادوا ذلك او ابتغوا ما يليه، فإننا سنبقى عاجزين ـ لأسباب تتعلق بصعوبة ترجمة الفرح الى اللغة ـ عن وصف عظمة هذه اللحظة المتفردة التي كان لهم شرف إضافتها الى قرص ساعتنا المنتحرة سمًا بعقاربها.

هذه اللحظة التي بادروا بتجميع شتاتها داخل صحراء احتلالنا المستقّل، وعلى هامش الحرام الوطني المشروط أبدا بشرعيات سالفة لا شرعية لها، حتى غدت شبيهة بأروع الملاحم الإغريقية التي لا تكتسب حصانتها الجمركية الا بمنع آلهة الارض والسماء من أي تسرب حدودي الى جغرافيا الارادة الانسانية ، هذه اللحظة التي كتبنا من اجل ان تكون عنوانا جزئيا لما كتبنا، وغنينا من أجل ان تكون إحدى افضل سونوتاتنا وزهدنا في المدح خوفا من ارجائها الى أجل مؤجل.وعانينا طويلا من عنصرية التمييز الفني حتى نعدل ساعاتنا على بارقة الجمالي فيها.

هذه اللحظة التي نتمنى عليها، بعد ان تحولت الى انجاز مرئي، أن تواصل وعي شروطها التاريخية لئلا تنتفي علة الاحتفال بها وممكنية

عدواها التنظيمية الجميلة لبقية الفصائل التقدمية المحتاجة اكثر من اي وقت مضى الى الاجابة على سؤال الوحدة والإئتلاف والكف نهائيا عن فجاجة التجريب المجاني وهواية الإنشقاق المزاجي، والتسلل المفاجىء الى ضفاف الايديولوجية المقابلة.

هل كتبنا بما فيه الكفايـة ؟

هل غنّينا بما فيه الكفايـة ؟

ولكن ما جدوى الحديث عن الكتابة والغناء وكلاهما يختزل هويتنا ويجرنا جرا الى سجننا المقرفص هناك... داخل أقفاص الحرية المذهبة.

وما مبرر كل هذه الاستشارات البرلمانية المقصود بها تحديد وظيفة الفن في الصراع الدائر بضراوة على كرتنا البحرية الجميلة، والفن مطالب دوما بأن يكون فنا أولا.

وجميلا وإنسانيا... أولا.

ومخيبا لآمال عسس القيم البائدة المحيطين بأقلامنا وأوتارنا... والذين لا نملك إلاّ ان نعينهم على السقوط ونفعل كل ما في وسعنا حتى نعيش يوما اضافيا كيدا لهم.. على حد تعبير المعلم ناظم حكمت. هل عشنا يوما اضافيا كيدا للعدو ؟

نعـم.

وشربنا على نخب ذلك ملح سِباخنا.

وما المانع من ان نعيش أياما أخرى ودلالة هذا المؤتمر الخارق تتعدى مشروعية إعادة الاعتبار للعمل النقابي الطلابي الى ما يجب ان تكون عليه الجامعة باعتبارها فضاء للإبداع والمعرفة، او هكذا يجب ان تكون، لا مجرد قاعات لتلقين الشبيبة أصول الوظيفة

العمومية، وأبجديات الطاعة العمياء، ومزايا التطيّر من العقل. وما نظن الوصول الى ذلك عزيزا على من أنجزوا اليوم هذا المؤتمر وعلى أساتذتهم الاجلاء.

معا أيها الطلاب على الدرب الطويل.

معا من اجل ان تصبح هذه الحياة جديرة بالحياة.

---

* نص الكلمة التي ألقيت في افتتاح المؤتمر 18 الخارق للعادة للاتحاد العام لطلبة تونس باسم الشعراء والموسيقيين.

# المنافقون

سكنون بعيدا عن الشعب
بعضهم في قصور فخمة
وبعضهم في سلسلة من القبور الفخمة
لا يراهم الشعب ولا يرونه الا لمامًا في الاحلام المزعجة وفي الكواليس الدورية التي يتبادلونهاَ، بمناسبة وبغير مناسبة، دعما لأواصر التوازي الطبقي المقرر تاريخيا عليهما.
ولولا أنهم موجودون فعلا لداخلنا الشك في انهم موجودون فعلا، ولحسبناهم كائنات اسطورية لا شيء يدل على وجودها سوى شبق الخيال العلمي العاجز - حتى الان - عن تناول قلم احمر وضبط الخط الفاصل ما بين الشرط الحيواني والشرط الانساني وتحديدا في بلادنا التي تقع، كما هو معلوم في الحد الاقصى من تدهور القدرة الشرائية وفي الحد الادنى من البند المتعلق بحرية التفكير ..الكائن في
الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .
في الايام القليلة الماضية رأينا احدهم وكان مثقفا مدّاحا لا يعاف حاكما ولا يخجل من محكوم، ولم تمض ليلة وشمس حتى رأينا آخر يدّعي انه شخصية وطنية، ثم آخر وكان محاميا، فآخر وكان طبيبا، فآخر وكان مشعوذا سياسيا، وأخيرا رأينا آخرين وكانوا، كالعادة، وطبعا، واحتراما لأخلاقية المهنة، صحفيين مداحين لا يعافون حاكما ولا يخجلون من محكوم : بعضهم في الاذاعة وبعضهم في التلفاز، بعضهم برتبة مخبر، وبعضهم برتبة رئيس تحرير، بعضهم يفتتح صحيفته بعامود، وبعضهم ينهيها بعامود دون ان ينسى وضع إصبعه في زاوية ما من رأسه حتى يضفي على صورته جوا من الوقار الزائف ويقنع قراءه بأنه يفكر !
رأيناهـم..

وكانوا كلهم، نعم كلّهم، مجمعين في ما كتبوا وقالوا على ان بلادنا دخلت عصر السعادة الكبرى بمجرد التغيير الحاصل في المؤسسة الرئاسية، وهو نفس الكلام الذي دأبوا على قوله، صباحا وعشيًّا، طيلة ثلاثين سنة عن السعادة الكبرى التي سبقت هذه السعادة الكبرى.. حتى غدت تونس، بفضل نفاقهم، نسخة طبق الاصل للجنة الموصوفة في الاسفار، وغدا رئيسها السابق، بفضل نفاقهم أيضا، إنسانا برتبة إلاه... لا تجوز الا طاعته في كل الاحوال.

وبما ان فضيلتهم اليتيمة تتمثل في كونهم لا يستطيعون إبداء آرائهم بصفة شخصية، او نيابة عن زوجاتهم على أقصى تقدير، فقد بدا كلامهم عن السعادة الكبرى وكأنه نقل امين لاستشارة شعبية قاموا بها في الليل.

ويمكن استنتاج ذلك من حشد الكلمات الإمبراطورية المتواترة في آرائهم وكتاباتهم ابتداء من نون الجماعة التي لا تليق بهم، وصولا الى جمع الجمع اي الى الشعب الذي لا ينتمون اليه.

* * *

يسكنون بعيدا عن الشعب

ولكنّ المتطلبات الميكيافيلية للدولة من ناحية، ووعيهم الديناري بالوطن من ناحية أخرى يستوجبان أن نراهم وان نقرأ لهم كلما أصرت الدولة على ان تستمر بنفس الاسلوب، وبنفس الرجال ايضا، مع تغيير طفيف في تراتيب المسؤوليات التي حُرم الشعب من المساهمة في تحديد مضامينها وأهدافها، وسيحرم لسنين طويلة ان ظل رابطا مصيره السياسي بنتائج الألعاب الأولمبية!

وأمس

حتى أمــس..

عندما أردنا ان نعبر عن نصف فرحتنا بما جاء في مشروع الوطن الليبرالي التي تضمنها تصريح السابع من نوفمبر، رأيناهم يسيرون معنا ويخرجون من حناجرهم جميع الشعارات البائدة، ويتزاحمون بالمناكب حتى يظهرهم المصوّر التلفزي بمظهر المالكين العقاريين للوطنية المطلقة.

وفيما نحن نحاول، في نصف فرحتنا تلك، إعانة الرئيس الجديد على ان يكون رئيسا نسبيا يخطىء ويصيب، كان الاخوة المنافقون يحرضونه علنا على ان يعيد بناء الاسطورة ويتحوّل الى رئيس مطلق لا تجوز الا طاعته في كل الاحوال.

وفيما كنا نحاول إقناعه بأن الرئاسة لا يمكن ان تسند شعبيا، بعيدا عن حدثية العواطف، الا حين تجاوز الخطاب الى الفعل، والوعد اى الانجاز، كانوا هم، كل من موقعه، يرفعونه الى رتبة المنقذ الذي فعل كل شيء ولم تبق له مهمة يقوم بها سوى... التقاعد أو التأريخ لما قام به !

وما حرصهم اليومي على قرأنة السابع من نوفمبر وتَوْرَتَة «العهد الجديد» إلا دليل على ان مبرّر إقامتهم في هذا العالم يتلخص في أسطرة الاحداث بدافع النهم المالي وقلة الحياء من التاريخ.

يسكنون بعيدا عن الشعب

ولكن الشعب، المشغول هذه الايام بنتائج الألعاب الأولمبية، يحاصرهم من كل صوب، وينغّص عليهم مستقبلهم وماضيهم، ويتراءى لهم شبحا مخيفا في الاحلام ويقول لهم صراحة :

أيها المنافقــون : لا غد لكم بيننا.

# سماحة الشيخ

عندما دعونا الى ضرورة الاسراع بتكوين حزب تكون مهمته الأولى، والاخيرة : تحرير الدين من السلفيين ومن الدولة.. ايضا، واشاعته بين الناس بشكل عادل، ظن البعض أننا مغرمون بإقامة مهرجان للحروف والكلمات الخالية مما يمكن ان يشكل معنى آخر للمعنى في زحمة المعاني المتداولة، هذه الايام، والتي تعني كلها شيئا واحدا هو : اللاشيء.. المزركش بعجائبية اللغة المقترحة علينا.

ومع أننا لم نصمت أمام الصمت العام، وأعدنا الدعوة في كل مرة كان يمكن فيها للكتابة ان توزع وتقرأ، فإنهم سدوا آذانهم بالإسفنج لمزيد تعميق الصراعات المفتعلة بين حشود المتضررين من وقاحة رأس المال الذي، غالبا ما تسنده الخرافة والسلاح، لتصبح سلاطة لسانه بلاغة من نوع خاص بأسم مسميات ومصالح عليا لم تتفق العباد يوما على الثابت في دلالتها، أو على المتحول في سيرورة إنقراضها.

ولكن شيئا ما قد حصل

لأنه كان لابد ان يحصل

ومن حسن حظنا انه حصل الان وهنا

فبعد ان تمكن التيار السلفي من التعبير بشكل دقيق، ومذّيل بحواش صفراء، وتمائم خضراء، عن مشروعه الطموح للحد من إصرار الانسان على السير، باتجاه إنسانيته، مستعملا في ذلك كل طاقات الجسد، ما عدا العقل والحداثة،، وبعد ان توصلنا الى المسك بشتات منطقة المشتت والغارق في ازدواجية مكشوفة تؤسس مستقبلها في ماضيها، وتنتصر للجهل أمام المعرفة، ها هم كبار موظفي الدَين في الدولة يعلنون الحرب، صراحة على العقل، بإسناد ديني مشكوك في صحته، انطلاقا من منابر بيوت الصلاة التي بناها

الشعب، بماله الخاص، لغايات محددة، لا تتلخص رغبته في دخول الجنة بعد ان اعتقد انه فشل فشلا نهائيا في ايجاد حل لمعضلة العيش بسلام على الكرة البحرية الجميلة،، وهو اعتقاد سرعان ما يتبدد في كل مرة يعاد فيها الاعتبار للنضال الجماعي المنظم، ولا يقع فيها تحريض الناس على الخوف من الحرية، والتطير من رفع نسق التضحية حتى الخلاص النهائي.

لقد أبى سماحة الشيخ مفتي الجمهورية، الا ان يتدخل الى جانب بعض الأيمة وعمال المساجد، لمواصلة نفس الحرب التي هزم السلفيون في طورها النظري الحاسم أمام العلمانيين، والكتاب، والفنانين، الذين يتقاسمون الجوع مع شعبهم على مائدة الغد المفتوح.

وقد وصلت به السماحة، وهو المسؤول الاول عن تأويل الدين الى حد تكفير مجموعة كبيرة من الشعب لم ينس نعتها بالكفر والزندقة والمروق، وهي نعوت قروسطية غير سمحة بالمرة.

فماذا يريد سماحة الشيخ بالضبط ؟

هل يريد ان يبشرنا بجهنم... ونحن لم نبارحها مطلقا، مما يجعل الجنة مكاننا الطبيعي بكل المقاييس ؟

وسيكون من الصعب حقا ان تقرأ تصريحات سماحة الشيخ، خارج دائرة فهم الدولة العام للمسألة الدينية لأنه يصعب تصور دولة بدون مسؤولين يشرفون على مؤسساتها، مما يجعل القول بأن مثل هذه التصريحات تجاوز للمسؤولية إدانة صريحة لعدم إنسجام هياكل الدولة، وهو أمر لا يمكن تحميلنا مسؤوليته، ولكوننا ـ ايضا ـ لم نُستشر ـ إطلاقا، في تصور ما يمكن ان تكون عليه الدولة التي تفترض، خطأ، انها خلاصة للاجماع العام باستمرار.

فماذا تريد الدولة بدورها ـ بالضبط ؟

هل ستظل تتبرأ يوميا من سلوكات بعض رجالها، ونظل

نحن نسأل يوميا : من المسؤول ؟ ومن المسؤول عن المسؤول ؟

أن مثل هذه الاسئلة لم تعد في حاجة الى ذكائنا ، والى غبائنا ايضا ، اذ كل شيء اصبح واضحا أمامنا ولا يحتاج الى مزيد التوضيح، بل الى مزيد الايمان بأن الاصلاحات الطفيفة لا تزيد الازمات العميقة الا مزيدا من الاستفحال. وهذا ما يدفعنا الى القول مجددا ان خيمة في الريح ستظل أكثر أمنا لسكانها من قلعة آهلة بالسقوط لن يضفي عليها الترميم سوى دلالة أخرى على عدم انتمائها الى حاضر الانسان ومستقبله، بل الى ماضيه المتحفي السحيق المحكوم بالخوارق والكرامات.

# درويش العنصري..
# إسرائيل الانسانية !

لم تجد اسرائيل منهجا نقديا، أو مشروع منهج، يمكّنها من فك أسرار قصيدة الحجر التي لا يزال شعبنا الفلسطيني مستمرا في كتابتها بنفس جمالية اشراقتها الأولى، فعادت مهرولة الى نقد الشعر... ولكن بمنهج هستيري، هذه المرة، يمكن ان يسمّى : منهج الخوف.

ممّــن ؟

من محمود درويش : حجر الشعر الفلسطيني.

فقد تهيأ لإسرائيل، بعد قراءة ناعسة لدرس السيميولوجيا، ان هذا الشاعر عنصري، وهي التي تعرف انه مولود، أبا عن جدّ، في فلسطين : قبل ان يتفق بعض صهاينة العالم، في أربعينات هذا القرن، على القيام برحلة استيطانية الى أرض لا حقّ لهم فيها الا كعابرين، وهو الوضع إياه الذي عناه درويش بقوله :

«أيها المارون بين الكلمات العابرة
موتوا حيثما شئتم
ولكن لا تموتوا بيننا»

ويتأسس منهج الخوف هذا على مقاربة برلمانية للشعر بحيث يكفي ان يُزبد رئيس الوزراء الاسرائيلي وتُصوت اغلبية اعضاء الكنيست على شفافية الزبد، حتى تنتفي الادبية عما يكتبه الفلسطيني، ويتأكد التوجه الديموقراطي لفاشية الغزاة، وتشتغل محاكم أوروبا دفاعا عن الوهم الصهيوني المؤسس باستمرار على ضرورة ان يكون الفلسطيني إرهابيا وليس صاحب حق.

ولعل أبرز عيب في هذا المنهج، المنتفض مثل دجاجة مذبوحة، هو جهله المدقع للأبجدية التي يكتب بها الفلسطيني، والتي يمكن رصد خصّيصتها المميزة في ارتباطها العضوي بالارض.. مما ينفي اي إمكان لأن تنشأ أبجدية فلسطينية مهاجرة لا علاقة لها بأرض

فلسطيني.

ذلك هو الذي يزعج اسرائيل المنزعجة أبدا من زيف وضعها الجغرافي على الكرة الارضية التي لا شيء يدل على انها لا تتسع للانسان بتعدد اعراقه.

وهل يملك شاعر ومناضل مثل محمود درويش الا ان يدفع بهذا الانزعاج الذاتي من كينونة الذات المزدوجة الى اقصاه حتى لا تجد الآلة الحربية الاسرائيلية ما تفعله بأسلحتها فتضطر للانتحار الجماعي أمام الحجر الفلسطيني الذي تعجبه سورة مريم بالقدر الذي يعجبه به نشيد الانشاد ومزامير داوود.

# أيها الفلسطيني:
# لا تكرّر العرب !

لم يكن اعسر على الفلسطيني من أن يكون عربيا، في النصف الاخير من هذه المائة : حارب ظلام العصر ببريق عينيه،،

وتعلّم بعتاد بسيط، وذكاء نادر، كيف يكون عدواً كفأ لعدو تحبه ثلاثة أرباع الارض والسماء.

ولكنه، كلّما اشتعل حنينه الى ملاعب الطفولة، وقطع خطوة باتجاه حديقته الخاصة، أو مقبرته العمومية، قطع العربُ ثلاثا في بناء اسطورة العبريّ الذي لا يُهزم.

وكان منطق الاسطورة يقتضي، بدء، وانتهاء، تطويع الشرطة، والقرآن، وسائر أنواع المحروقات، لصياغة جبرية من طراز عيبّي جديد لكي يصدّق العامة استحالة انهزام العدو، يتحتم على العرب هزم الفلسطيني، بطريقة أخوية، أصيلة، لا تتناقض مع تعاليم التراث الانعزالي !

هزموه ألف مرة،،

وحين عصر رمال الصحراء ليعيد انتاج دمه، اتهموه بمشاركة آخر آلهتهم في معجزة البعث.

قتلوه ألف مرّة ومرّة،

وحين حوّل قبره الى قاعدة عسكرية، وفراش للحب، حشروه في جمهرة الجن والارواح الشريرة.

كان كل ذلك يتم، صراحة، باسم مصالح الامة.

الامة التي لا يمثل حكّامها سوى زوجاتهم، ورهط من مهربي المخدرات، ومحتكري المعادن.

الامة التي لم يُضيء قنديلا واحدا في النسيم

الامة التي أنشأت اكبر ادارة مشتركة، في تاريخها الحديث، لتنمية تخلفها المشترك. الامة التي لم تعد أمة منذ بني أميّة، كما تقول الكتب.

وفي زحمة الحماس الرسميّ الزائف لمأساة الفلسطيني / الرحّالة، لم تجد الجماهير العربية شفة، أو قلما يقولان لها بلغة أقل تعقيدا من المجاز، انها حين تُعلن فلسطينيتها، بنفس الصيغة الرومنطيقية السالبة، التي تعودت عليها، انما تصبح طرفا نشيطا في بناء الاسطورة، وتتحالف مع حكامها ضد نفسها، أولا، وضد الفلسطيني، أولا.

لم تجد من يصاحرها بأن تحقيق ذاتها، حيث هي في الارض العربية، هو الطريق المعبد الى حيث يجب ان يكون الفلسطيني.

لم تجد من يرسم لها حدود نيتها الطيبة، ويقول لها انه يتحتم عليها، حين يُصادر حقها في الموت من أجل تحرير فلسطين، أن تلزم ديارها وتعيد ترتيب الاعداء، بما يتناسب وقدرتها على مقاومة الإستبداد المباشر.

انه لطموح ساذج ان يحلم العربي بامكان الابتداء من النهاية، وأن يهدد بفلاحة السماء، في حين ان أرضه كالحة كالعطش، ومحراثه صدىء منذ اغلق اجداده باب العقل، وحولوا المعرفة الى مجرد عملية استذكار لحقائق أبدية، لم يقولوا كيف اكتشفوها !

وبين ثنائية، حدّاها عاجزان، الان على الأقل، عن الوفاء لمستلزمات النسب، يبقى أمام الفلسطيني ان يسكن البحر، وان لا يتنازل عن مطلق الماء الا ليبحر الى مطلق التراب.

وعليه، اذا أراد ان يقرب بين قاع المحيط وقمة الكرمل، بين الموجة والشارع، بين السفينة والمنزل، ان لا يكرّر العرب حتى في قولهم : "صباح الخير".

إلى الطيب البكوش..
شخصيا

«وليس يصح في الافهام شيء / اذا احتاج النهار الى دليل»
* المتنبي

وانت فيما انت فيه... صباح الخير !
اذكر انني التقيتك مرتين :
مرة في سماء نهج اليونان، مع جمع من الشعراء للتعبير لك عن اعجابنا بالملحق الثقافي لجريدة «الشعب» وما يستتبع ذلك من ضرورة دعمه، حتى ينتحر الرأي القائل بان الامة هي كل ما يلزم العمال من ثقافة.
ومرة على رصيف نهج ف. شالاي، بعد ان طلب مني الزميل مختار بويكر ان اكتب زاوية أسبوعية، بنفس الجريدة، فلم اجد مهربا من حماسه وطيبته المبالغ في تلقائيتهما.
ورغم ان المقابلتين لم يدوما أكثر من الوقت الضروري لاحتساء قهوة الصباح، ولم يتخللهما اي حوار ايديولوجي، فأنني توصلت الى تشكيل قناعة شبه نهائية عنك.
وكنت غالبا الخص هذه القناعة بأسلوب شفوي مرح... كأن أقول مثلا : ان الطيب البكوش يتمتع «برذيلتين» لا جدال فيهما : أولاهما العقلانية المفرطة
والاخرى : سعة الثقافة.
فتضحك الطاولة، وينتقل الجلاس الى ابداء آرائهم في مشية النادل... او في تسريحة شعر عابر.
وليست شجاعة ان احبس هذه القناعة في صدري، وان لا أدونها الان وهنا مادام احد الاسباب الاربعة التي كانت في أساس تهجيرك من النشر والاعلام هو فتح المجال أمام الاقلام التي تكتب من اليمين الى اليسار.

أعني : ما دمت متهما بي شخصيا وبغيري من الكتاب والصحفيين الذين لم يدخروا جهدا للارتقاء بجريدة «الشعب» من كيش للاعلام الداخلي الى جريدة قادرة على تجنيد الرأي العام لفائدة الشغيلة والتقدم... بشكل عام.

وليست شجاعة ايضا ان أترك الفرصة تفر ولا اعبر عن اندهاشي وخجلي من ان يكون أول خبر أقرؤه وانا خارج من السجن برأس محلوق وبضلع مهشم هو اقالتك من مكان نجاحك بذلك الشكل الفولكلوري... وشطب مقالي ومقالات بعض الزملاء، من العدد السّيء الذكر، تماما مثلما تشطب النجوم من جدار الليل !

وأنا لا يهمني صراحة ان تكون في هذا المنصب أو ذاك... او ان ينفذ صبرك، فتتأبط محفظتك وتعود الى مدرج الالسنية.

ما يهمني تحديدا هو اقامة الدليل لنفسي أولا على ان الوثنية الجديدة ما انفكت تدب في شرايين اغلب التنظيمات، السياسية والمهنية ، الخارجة عن نفوذه.. فبتنا ، بالنتيجة أمام شخصانية، مرعبة، قبالة واحد لا يحب ان يتعدد ، قدام «زعماء» يعتقدون فعلا ان انفرادهم بالنفوذ حق الاهي لا بديل عنه !

ان اقامة هذا الدليل هي المنفذ الوحيد الى مغاليق قضيتك... التي لم تعد قضيتك.

وهي اضافة الى ذلك خاتمة للوهم الذي شدنا طويلا الى ابطال لا يملكون من صفات الابطال سوى ماض مفارق... لا غد له.

وهي أخيرا النافذة الوحيدة التي يمكن فتحها على ممكنات العمل النقابي غير المتمركز حول «أب منفذ» أو «نبي» لا كتاب له.

ولا أخالك، وانت فيما انت فيه الا منشدا مع طاغور : «اعرف ان اني لن استطيع الانتصار

فلا لعب لعبة هزيمتي
ربما تمنحني هزيمتي المطلقة انتصاري»

أما أنا، فسأخصص المساحة الكبرى من لساني لمدحك علنا في المقاهي وفي عربات القطار... في الصحف وفي الشوارع المكتظة بالمارة.. حتى اذا لم تعد كما انت انصرفت عنك الى مبادئي، أو الى من يكون أقرب منك الى تحقيقها.

لقد اتسع الجرح في القلب يا أخي:

وغاية ما اصبحت اطمع اليه هو ان اعري قناعتي، واتركها تستعرض مفاتنها بكل ما أوتيت من شبق دونما خجل أو خوف من اليمين المتطرف واليسار المتطرف... والوسط المتطرف.

فأنا بعد كل حساب لم اسلم من خناجرهم جميعا.

* كاتب وزعيم نقابي تونسي

# رسالة أُفقيّة
# إلى معارض عمودي

لقد عرفتهم جدّ المعرفة أولئك المتجلّين على صورة الله ومثاله. فتيقنت ان جميع رغباتهم تتجه الى ان يؤمن الناس بهم، وان يصبح كل شك فيهم خطيئة».
* نيتشه

كيف يمكن ان تكون معارضا وأنت تُعيد، يوما بعد يوم، إنتاج ماموس عليك من قمع على من يخالفك الرؤية، والرأي ؟

وما فائدة ان تكون معارضا ـ أصلا ـ إذا كنت تنوي تهجيرنا من واقع سلطوي شرس الى لاحق أكثر سلطوية وشراسة ؟

وهل صحيح ان كل كاتب يرفض الركوع تحت قدميك، والانتماء الى حلقة مريديك، هو ظل للشيطان ؟

وان كل امرأة تناضل من أجل أن لا تكون زوجتك الثانية هي عاهر، أمًا عن جدّة ؟

نريد ان نفهم، أيها السيد المتربع على صرة اليقين، الماسك بتلابيب الحقيقة المطلقة، الذي لا بديل له !

منذ ثلاثين عاما ونحن ننقد رجال الحكم، ونحثهم على ان يكونوا مواطنين كاملي الحقوق في المتاحف الاثرية، أو في الجزر الشاغرة.

بعضنا سجن من أجل ذلك

أو استشهد... مرة واحدة

والبقية لا تزال تعلم الاطفال ما معناه ان الديمقراطية ألذّ من الحلوى، وتردّد علنا مع بيار نافيل ان العصر «ليس عصر نبوءات بل عصر توقّعات»، دون ان تثنيها القوانين الجائرة عن مواصلة النشيد.

ولكننا أيهًا السيد، كلما عبّرنا، شفاهة أو كتابة، عن يقيننا بأنك بشر مثلنا، تخطىء وتصيب مثلنا، تحيا وتموت مثلنا، تملّكك الغضب، ونشرت بني هلالك في الصحف، والشوارع، ومحطات

الباص، ليعلمونا كيف نصمت قبل ان تنغرز خناجرهم المسمومة في ضلوعنا المهشمة!

نريد ان نفهم، ايها السيد سبب تحوّلك المفاجىء الى معين للرقيب الرسمي، والى خرطوشة اضافية في هذه البنادق الكثيرة الموجهة الى صدر الوطن، وأخيرا.. الى وثن لا يليق بالمدينة.

ولأننا لم نفهم، حاولنا كثيرا ولم نفهم، فإننا لا نرى جدوى في تأجيل صراعنا معك الى وقت تكون فيه رؤوسنا قد أينعت وحان قطافها، ويكون فيه زبانيتك بصدد إيقاظ شهرزاد، وأبي نواس، وبقية الاموات، لمحاكمتهم طبقا لدستورك الجديد.

ثم لماذا نؤجل هذا الصّراع، ونحن مقتنعون، تمام القناعة، بأن ثمة فارقا بين ان ينحاز الكاتب الى بعض الافكار والقيم المحركة لقوى المعارضة في بلاده، وبين ان يتحول ـ مباشرة بعد إعلان هذا الانحياز ـ الى سكرتير وديع، لا يتجاسر على تنقيط مقال، أو قصيدة، أو صرخة، الا بعد استشارة هذه القوى ؟!

وهذا الفرق ليس طارئا، أو مستحدثا، إنه خصّيصة الكتابة التي لا يتحملها سياسي مثلك، بحكم حرصه على الانضباط، واشتغاله بالظرفي، وولعه بالسيطرة والخطابة. نريد ان نفهم أيّها السيد الذي «تنتشر رائحة اللحود من مواعظة».

وبعد نيتشه.. دعنا نصارحك بأننا لا نرغب ـ حقيقة ـ بعد كل هذا التاريخ المليىء بالقمع، والجهل، والشعوذة الفكرية، في ان نفرغ جماجمنا من عقولنا، ونثبت مكانها صورا ملوّنة لامام، أو جنرال، أو طاغية.

لقد تعلمنا من هذا الشعب العظيم ـ الذي إذا رفع صوته مؤذّنا للحرية عدلت الشمس عن الغروب ـ أن نحارب الظلم... في كل الازمنة.. حتى في ذلك الزمان الذي لم يأت. وهل يأتي ؟

مع إحترامنا للآخرين..
نحن أننا مع بعضنا

ليصعد الكتاب والفنانون الصاعدون
وليسقط الفنانون والكتاب الساقطون
وليذهب الحيارى الى المارستان

أما نحن فباقون على الارض أقدامنا في أحذيتنا ورؤسنا على اكتافنا، لنحرس ما لم تدنّسه العقلية الوصولية والاستهلاكية بعد، ولنقطف ثمرة من تلك البذرة التي أودعناها عميقا في التراب حتى لا يعفنها دودُ الاستقلال وحشرات الاستعمار الحديث المقدّم باستمسرار لنا على انه شكل راق من اشكال التعاون الانساني بين المركز والمحيط.

ومن البدء نعلن اننا لسنا انقلابيين
ونضيف أننا لسنا انشقاقيين

ذلك أننا لم ننتم، منذ طروئنا على الفن أو طروئه علينا، الى جماعة فنية منظمة او الى مؤسسة ثقافية مسجونة داخل قوانينها المشروطة أبدا بشرعيات سالفة لا شرعية لها

وحتى الذين انتموا منا، في وقت ما بدافع الحرص على تغيير الراكد من الداخل فإنهم سرعان ما ادركوا استحالة العمل مع هذه الجماعات والمؤسسات التي تشكلت كلها قريبا من المتطلبات الحكومية والاستراتيجيات التكتيكية، وبالتالي بعيدا عن شروط الكتابة والفن... فابتعدوا عنها، أو استقالوا منها، لأسباب وجيهة في مجملها تتلخص - أساسا - في العائق الهيكلي الطاغي على قوانينها الاساسية والذي يتيح الانخراط لكل مقاولي الثقافة الذين لا صلة لهم بالكتابة والفن، مما يجعل موازين القوى غير متكافئة باستمرار اي ضد رغبة التغيير دائما.

من الداخل ينظر الموتى الى الظلام
ومن الخارج تتسع الرؤية والرؤيا لتجعلانا نشتهي عدّ الاغصان

الغضة، والعصافير الجريحة، من اجل تهيئة حديقة فنية ضيقة الوسع، أو وسعة الضيق، لا يزورها سوى الخالية جيوبهم من رشاوي العهود السابقة واللاحقة. والمؤمنين بحتمية إنتصار الوعي الجمالي على الوعي الحانوتي بالعالم.

وليس صحيحا ان جيش الكلمات الديناصورية مثل : وحدة الكتّاب، والمصلحة الفنية العامة، والقيم الجماعية العليا، قادرٌ - بعد الان - على حجب التناقضات الجوهرية المقرّرة - تاريخيا - على الرؤى الفنية والجمالية وإذن على ممارسات منتجيها داخل حركية المجتمع.

لقد تعلمنا درسا لن ننساه أبدا لكونه تحول الى حقيقة مطلقة النسبية وهو ان الكاتب كان دوما شرطيا على الكتاب، وان الفانان كان دائما جلأدا مخلصا للفنان، وان هذا وذلك كان «يحبّان» بعضهما تماما مثلما «تحبّ» الريح الشرّيرة زهرة عباد الشمس.

ما الكاتب وما الفنان، اذن سوى مصطلحين لا يصلحان الا لإشاعة التناغم والسكون، تارة باسم الحب الزائف وطورا باسم الديمقراطية ؟ وما معنى ان يمنع كاتب أو فنان من التعبير، ويسجن مرّة واحدة، او يصادر في قوته اليومي، في حين تستمر عجلة المدح والتملق في الدوران بفضل «ابداعات» الكاتب الاخر، والفانان الآخر، في تبرير حيوانية السلطان وتطيّره من كل خطاب مغاير ؟

من الداخل يهتفُ للثّابت الثابت.

ومن الخارج ينشد للمتعدد الذي لا يكتشف ثابته الا حين يقيم الحدود الفاصلة بين الحلم والوهم، ويلتحم عضويا بالنيّر والناشز في ماضيه، وبخيوط الفجر الأولى المنبئة بشمس لا تغيب.

أبدا..

لم نرغب في فتح الابواب المفتوحة

ولا نرغب في غلق النوافذ المغلقة
ولم نسقط في انتخاب ديمقراطي حتى نعلن إنشقاقًا بائسا ولكن صرير الابواب والنوافذ المصمّ للآذان دفعنا الى التفكير جدّيا في صنع أبوابنا ونوافذنا الخاصة حتى لا يقال عنّا :
أنظروا الى اولئك المساكين... تلسعهم الريح... انهم جديرون حقا بالشفقة!

ولان الحياة ستظل دوما في حاجة الى من يصفها ويرويها، والى من يصورها ويجسّمها ويغنّيها، كان التقاؤنا هذا كتّابا، ورسامين، وموسيقيين، ومسرحيين، وسينمائيين، احتجاجا على الاقامة الجبرية المفروضة - بشكل فردي - على الفنون... وتجاوزا للمهمات النقابية الابتدائية التي حولت الكتابة والفن الى مصلحة من مصالح الوظيفة العمومية.
من الداخل يأخذ الكرئسيُّ شكل معبد صغير لا يصلح الا كمكان لتدوين الاعمال الكاملة للبيروقراطية !
ومن الخارجيِّ نعلن أننا مع بعضنا إبداعيا.. في انتظار ان نكون مع بعضنا قانونيّا

# أمريكا

هكذا يقول الفرنجة في وصف ثنائية العلاقة ما بين القلوب التي ترقص على نفس الايقاع في حلبات العشق الصوفي المفتوحة أبدا على البدايات التي لا تنتهي وعلى النهايات التي لا تبدأ.
والذي لا جدال فيه، رغم هذا الجدال المفتعل حول ما اذا كان العدو عدوا والصديق صديقا، هو ان أمريكا تأتي في مقدمة الدول النووية، الطارئة مؤخرا على التاريخ، التي يمكن اختزال قداسة ديانتها، وفرادة علاقتها بأصدقائها، في هذا المثل المكون - لحسن حظنا - من ثلاث كلمات، ومن كلمة معادة، وإلا كان حبها كارثة حقيقية على أعصابنا الشبيهة بحبال الطبول.

وفي ما يخصنا نحن العرب فقد جربنا حب أمريكا، وأعدنا إعادة تجربته كما يفعل المهيؤون أبدا للخديعة الى درجة أصبحنا لا نقوى معها حتى على الاجابة بنعم الضرورية على أسئلتها الجارحة **لاحتلالنا المستقل**، الامر الذي حدا بنا الى اعلان أمريكا دولة صديقة مدى الحياة، والى تحريم الكتابة ضدها، عملا بأوهام ومصالح لم تعد خافية على أحد.

وأكثر من هذا الاعلان، المحرج لحشرجة الروح، فقد مكناها من أفضل زاوية في القلب، من جونا من برنا، من بحرنا، لتمارس أنشطتها «الانسانية» بكل حرية، مقابل مزيد من التبعية والتداين وكمية حقيرة من السلاح لا يمكن استعمالها إلاّ في حروب - محددة سلفا - بيننا، أو لتأديب شعوبنا التي يعوزها غياب الخبز والحرية عن التفكير الجدي في ما اذا كانت جديرة - حقا - بأن يعاملها حكامها

بفائض هذا الحب الصوري الخالي من كل ما يدل عليه.

واذا كان من حقنا، نحن الذين لا نزال نسأل من نحن، ان لا يمنعنا كل هذا التسكع على هامش القرن من مزيد التوغل في حب امريكا، باعتبارنا أرقى حالة من تجليات الخدعة والوهم، فانه لا يجوز لنا اكرام الفلسطيني الهارب الينا من امتداد أمريكا في الشرق الاوسط، والمقتول معنا وبيننا بسلاح أمريكي، والعائد غدا، أو غدا الى بلاده، بهذه الطريقة الفجة الخالية أدبياتها من كل ما يشير من بعيد، أو حتى من بعيد، الى المسؤولية المباشرة لأمريكيا في كل ما ألمّ بالفلسطيني وبنا طيلة السنوات التي قضاها بيننا مطمئنا على موته الممكن في كل لحظة، ومجردا من سلاحه لأسباب حكيمة نجهل مصادر حكمتها التي لا حكمة فيها.

كما انه لا يجـوز لنا، كلما استشهد الفلسطيني بيننا ومعنا، ان نعود الى محفوظتنا اليائسة تلك والتي ملخصها ان بلداننا الصغيرة عاجزة عن التصدي للارهاب المجاز أمريكيا، لان محفوظتنا البائسة تلك، رغم صحة مقدمتها القدَرية الخاطئة، لا يمكن ان تصلح كتبرير رسمي للاهانات الموسمية التي تتكرم بها علينا أمريكا المطمئنة سلفا على قدرة قوات الامن العربية على قمع المسيرات والمظاهرات المستنكرة لسلوكها المتغطرس.

وانه لغريب حقا، بعد كل الذي حصل في بيروت، وتونس، وطرابلس، والذي تتبؤ مجمل المؤشرات بأنه سيحصل، ان نواصل تعويلنا على أمريكا متحدين بذلك الشعور الوطني والقومي الذي يمسك الفلسطيني ببارقة وعيه دون ان يشعرنا بأننا لاجئون في تاريخه والحال أننا كذلك تماما مثلما يقول الطاهر لبيب في سياق حديثه المر عن سادية عرب الكثرة أمام الابداع الثوري الذي تمارسه القلة الفلسطينية بملحمية نادرة ضدّ الآلهة النووية المتحدة.

فبين أن نكون مهزومين وان نشتري الهزيمة بأي ثمن ثمة ما يدعو - حقيقة - الى التساؤل حول ما اذا كان مشروعنا الوحيد هو ان نكون أضحوكة هذا القرن بعد ان أبدعنا طويلا في الوجود الهزلي الذي ملّه المتفرجون !

# II

# إلى المهدي الذي ظهر

## عن المرأة

«أذاهب أنت الى المرأة ؟ لا تنسى اذن سوطك !»

هكذا، ولسبب ذاتي بحت، لخص نيتشة حرية الخصوصية على النساء. والسبب ببساطة هو انه لم ينجح في اقامة علاقة موفقة مع اي امرأة عرفها في بروسيا كلها... بدء من جدته وأمه فأخته وعمتيه العانسين، وصولا الى كوسيما فاغنر التي تآمر ولعه الاسطوري بها مع عبقريته النادرة على الوصول به الى قصيّ الغربة والجنون.

واذا كنا نجد، في المسيرة المرعبة للعباقرة، بعض العذر لمواقفهم المفارقة... دون ان نبررها أو نحملها محمل الجد، فاننا لا نملك الا ان نرتعد أمام المستقبل الجنائزي الذي يشيده السياسيون العاديون لنسائنا ثم للمجتمع بشكل عام.

والسيد راشد الغنوشي يتصدر قائمة هؤلاء لكونه يخبىء الحقيقة المطلقة تحت مخدته،، دون ان يحس بالحاجة الى التدليل على الطريق التي انتهجها لتجاوز نسبية عقله الشخصي.

نرتعد، لا لأن الخوف فضيلة متأصلة فينا او لأن أمهاتنا قصرن في تربيتنا، فهو يعرف من دون شك ان قائمة شهداء ما بعد رحيل الفرنجة مليئة بالرجال والنساء الذين وهبوا دمهم لقيم رئيسية ثلاث : الوطن فالعدالة الاجتماعية فالحرية،، فيما كان هو وبقية السبحانيين يقيمون صلاة الاستسقاء السياسي، ويدعون على نايل ارمسترنغ الذي عصا الله بإدعائه الوصول الى القمر، ولم يتمكنوا بالتالي من المشاركة بشهيد واحد ليصلي بالموتى او ليقرأ عليهم نهج البردة تحت اللحود.

نرتعد لان صورتنا نحن الرجال في خطبه وتصربحاته غير بعيدة عن صور الوحوش والمتوحشين... حتى ليخيّل للزائر اننا نقوم قبل صياح الديك ثم نتأبط ذكورنا ونفرنقع في الازقة والحارات...

وبمجرد ان نلحظ فتاة نطرحها ارضا، ونتناوب عليها الى ان تفارق الحياة... فتنقل سرا الى اقرب مقبرة من مكان الحادثة، او تردم في فوهة احد المجاري البلدية.

نرتعد لان المرأة عنده لا تعدو ان تكون مجرد فرج يتوجب حفظه مع الاثاث المنزلي، وإلباسه أمام مرايا الكتب الصفراء. وتعليمه على يد عجوز شمطاء مثلما اقترح ذلك صديقنا الاعمى ابو العلاء المعري، وتدريبه على السباحة بعيدا عن الرجال الذين كان كل ذنبهم ان الطبيعة لم تبخل عليهم باعضاء تناسلية للحفاظ على استمرارية الجنس البشري، والثقافة بسراويل يفتحونها ويغلقوها طبقا للاخلاق العامة.

نرتعد لاننا لا نجد صلة غير مضحكة بين خروج المرأة للشارع والعمل وبين تخلف البلاد، اي بين التحرر النسبي للمرأة وبين انخفاض الناتج الجملي للبخور والمعدنوس! نرتعد لأننا نخاف ان تضيع نساؤنا داخل الخمار والجلباب، فيضطر الرجل منا الى ان يستوقف كل من تعترضه ليسألها هل انت زوجتي ؟!

وهل يعتقد السيد الغنوشي فعلا ان الخمار سيحل «المشكلة» الا يعرف ان العيون ستظل ترى وتقوم بكامل وظائفها البيولوجية والعاطفية ؟

الا يعرف ان الجلباب حين تذروه الرياح يصبح اكثر استفزازا من اللباس العادي، واكثرا تشويقا للنفس ؟ وما دام يعرف، فلماذا لا يستغل أريحيتنا ودفاعنا المبدئي عن حق حزبه في التواجد القانوني، ليواصل خطابه النكوصي الى مداه، ويصل قبل نهاية الصيف الى النتيجة المنطقية والدموية لهذا الخطاب : لقطع دابر «الزنا» لابد من قطع آلات «الزنا» ؟!

إلى المهدي الذي ظهر
عن الشعب

برغم ضآلة الفارق ما بين الشعر والشعب، فان ايا من الشعراء بما في ذلك الذين صلبوا او مزّقت أوصالهم على ايدي رجال الدين - لم يتوفر على القدر الكافي من التواضع للادعاء بأنه هو والشعب شيء واحد.

هذا الادعاء الذي نلمسه في كل كلمة ينطق بها سياسيو المزهوة بتخلفها الذين يتجولون خارج الحضارة والتاريخ بأبهة الطواويس وفراغ الطبول.

ولو كان هذا الادعاء قابلا للتصديق لما كلفنا انفسنامشقة فتح القوارير المفتوحة... ولانصرفنا الى البحر، او الى الضحك على حال بلادنا، غير انه ادعاء قديم، جديد لا أساس يثبته سوى الوهم والعربدة الميتافيزيقية.

وهل ثمة وهم أكبر من ان يدعي السيد راشد الغنوشي زعيم الاتجاه الاسلامي المتجه الى الماضي، حيث الجلد هو المتعة الرئيسية للدولة، بأن أغلبية الشعب صائمة ليبرر بذلك اعتداء مريديه على المفطرين... وليصل في النهاية الى ان حزبه هو المعبر الحقيقي والمترجم النابه عن روح الامة !؟ لنتفق اولا على البديهة.

وما دامت البديهة تقول ان الاغلبية والاقلية مصطلحان يحيلان بالضرورة الى العدد... فلماذا لا نعود الى الاحصائية الاخيرة للسكان، لنتيقن جميعا وبدون خطابة هذه المرة ان اغلبية الشعب هي المفطرة اذا ما احتسبنا اللائكيين والحوامل، والمرضى، والمنافقين، والمسنين، والمسافرين، واليهود، والصغر الذين يمثلون بمفردهم أكثر من 40 بالمائة من مجموع السكان.

صحيح ان العودة الى الاحصائيات ستجعل من السيد راشد الغنوشي زعيما اقليا... وتفقده مبرر الحديث نيابة عن «روح الشعب» (بالمناسبة : ما هي روح الشعب ؟) ولكن ما دخلنا نحن

في ذلك ؟

ان هذا الشعب العظيم الذي يستشهد ابناؤه بكل سخاء، ويبني المدارس والمساجد من قوته الخاص، ويشرب 25 مليون قارورة في السنة (انظر احصائيات وزارة الاقتصاد)، ويناضل يوميا من اجل الديمقراطية، لا يقبل ان يرغمه احد على ان يصوم او على ان لا يصوم.

لا يقبل ذلك لسبب واحد :

لانه ذاهب الى الحرية

والان : بامكان السيد راشد الغنوشي ان يواصل مديحه لنا :

شيوعيون

ملحدون

زنادقة

لا يؤمنون بيوم الحشر

يشربون القهوة مع زوجاتهم أمام الناس !

فقط،

عليه ان لا ينسى انه لا بد منّا نحن الذين سندخل النار ليشعر هو بضدية ما :

بوجود الجنة... مثلا.

# إلى الوراء.. إلى الوراء..

# سنـنتـصـر

أصحاب المقاعد المحجوزة في السماء، وبعض الليبراليين، الذين يفكرون جديا في التوبة حال وصولهم الى سنّ التقاعد : حيث يصبح الرقص مستحيلا، والتسبيح أقل عناء من الركض في ملاعب السياسة والتنس، يريدون إقناعنا ـ هذه الايام ـ بأن الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان ارتكبت جريمة أخلاقية ضد هوية الشعب، وذلك بقبولها مبدأ الدفاع عن حرية المعتقد وعن الزواج من اي معتقد (محتوى الفصلين 8 و9 من ميثاقها الجديد).

وأكثر من ذلك فقد عروا على كل مفاتنهم البلاغية والفقهية لتحريض السلطة على حرمانها من التأشيرة ان هي لم تتراجع ـ فورا ـ عن مقرراتها، فيما جنح البعض الاخر الى التهجم على مناضليها التقدميين.

ولما كان هؤلاء يؤمنون بالجوهر الافلاطوني اكثر من إيمانهم بأن عصا صغيرة يمكن ان تشقّ البحر، فقد جرّدوا السبعة ملايين تونسي من علمهم وجهلهم النسبييّن، من تناقضاتهم العقائدية والطبقية، من تفاوت أعمارهم واستعداداتهم لتصديق خرافات سماسرة الارواح،، واطلقوا عليهم صفة ميتافيزيقية تدل على عدم وجودهم اكثر مما تدل على وجودهم. هذه الصفة هي «الشعب».. ليصلوا ـ في النهاية ـ الى ان هذا الشعب/ الجوهر لا يمكن ان يوافق على كل بنود حريته !

**والحقيقة** انهم كانوا مرغمين على الوصول الى هذه النتيجة لكونهم ينطلقون من قناعة تناسخية ملخصها أنهم والشعب شيء واحد (لويس الرابع عشر كان اكثر تواضعا لتماهيه مع الدولة فقط !)، ولكونهم ـ اضافة الى ذلك ـ غير مؤهلين لحكم شعب حرّ... أو سائر باتجاه الحرية. مع العلم انه لا وجود لشعب يكره الحرية.. وحتى اذا وجد فان جميع أفراده سيكونون من الحجارة وعلب

الياغرط !

ولو تجاوزنا حرية المعتقد (التي لا تتطلب اي نقاش لفرط معقوليتها) وتوسعها في القول مع هؤلاء المغرمين بالمسافات القصيرة في التكتيك السياسي وبطول النظر في مصالحهم الخاصة، لنطلب منهم رأيهم في حالة ممكنة الوقوع، لأقسموا بالاههم الذي لم يتحدوا يوما على فهمه على ان الممكنات غير ممكنة، بديل قسمهم على... عدم امكانها !

ومع ذلك، فليفترضوا معنا ان الماسك بزر القيامة عنّ له يوما ان يضغط عليه، او انه تلقّى أمرا استعجاليا بذلك، فكانت الحرب النووية الشاملة، ولم ينج من الخراب سوى رجل مسيحي وفتاة مسلمة.

ليفترضوا ـ بعد ذلك ـ انهما إلتقيا صدفة، في مكان ما من البلقع الارضي، وإنهالا على بعضهما قبلا وبكاء، وليجيبوا الآن على السؤال التالي :

- هل يسمحون لهما بالزواج الفوري للمحافظة على الجنس البشري ؟ ام يقولون لهما من الآن : زواجكما حرام... لانه ضد الشريعة ؟

ونحن لا نشك لحظة واحدة في ان الاجابة المضحكة الاخيرة هي كل ما يمكن ان يوفره هؤلاء الاجلاء للجنس البشري، شأنهم في ذلك شأن رجل القمارق الذي أنقذ بحارا من الغرق المحقق واشترط عليه الاستظهار بجواز سفره (الذي سقط في قاع البحر !) قبل ان تحمله سيارة الاسعاف الى غرفة الانعاش !!

ولكننا، وبالرغم من ذلك، سنخصهم بالشكر على صياغتهم النووية لشعارهم الفقهي القديم الذي يمكن ان نكتبه بهذا الشكل :

تحيا الشريعة..

يسقط الانسان !

هذا الشعار الذي نبتت ـ من جرائه ـ مليارات المقابر منذ خطر لأول قرد في التاريخ ان هذا العالم لابد من ان يكون له خالق، وانه من المفروض ـ تبعا لذلك ـ ان يكون لهذا الخالق رسل لإيصال بريده الى أدغال اليابسة.

ومن نافلة القول ان طبيعة هذا الشعار ستدفعنا الى التساؤل الملحاح :

ولكن، بأية قدرة ستتواصل مملكة الله بعد ان ينقرض ذلك الرجل المسيحي وتلك الفتاة المسلمة اللذين منعا من الزواج بمرسوم عدمي ؟

الاجابة بسيطة للغاية :

ونستطيع ان نؤكد انهم لن يجدوا افضل مما يلي :

«عندما يحدث ذلك... سنرى» !

حسنا ! لنهتم الان بفضائل «سنرى» هذه. ومن المفيد ان نتفق ـ أولا ـ على ان الضمير يعود عليهم لوحدهم، وان فعل الرؤية هو اجتهادهم الخصوصي في الشريعة،، حتى نرى ـ فيما يخصنا ـ ما كنا رأيناه في تاريخنا البعيد والقريب من استحالة تخلي مثل هذه الجماعات على احتكار الرؤية، لتوظيفها سياسيا لفائدة الحكام او من اجل المساهمة معهم في الحكم ضد... الشعب !

وليس من قلة الموضوعية ومستجدّ القول ان نجزم بان العامة (الشعب) كان مطلوبا منها دائما ـ ان تصدق إطلاقية عقول هذه الجماعات وتسمو بها الى مرتبة فوق ـ إنسانية لا مجال فيها لخطأ والمشورة،، اي ان لا تساهم في اي قرار او اجتهاد يخصان شؤون حياتها،، وهذا عائد الى طبيعة الشريعة التي لا يمكن ان تطبق الا بشكل عمودي، عن طريق وسطاء الفقه والسياسة، لكونها جاءت لتعلم وتهدي بشرا «ضالين» ولم تأت لسبر آرائهم في ما يريدون ان

يكونوا عليه.

وبما اننا اصبحنا نعرف - بحكم المسافة الزمنية التي تفصلنا عن القردة - ان أناسا لا يخطئون هم مشاريع لصوص وسفاحين، فاننا لا نملك الا ان نختم هذا النقاش بعقوق علني لكل من لا يهدأ له بال الا اذا فكر نيابة عنّا ولسان حالة يقول :

- «الى الوراء،
الى الوراء
... سننتصر» !

ذلك ان «إرثنا ليس مسبوقا بأية وصية» لاحد أو جماعة، كما ان حقوقنا - كبشر سابقين للشرائع - لا يمكن ان تتجزأ الى درجة يصبح مكتوبا علينا فيها تأسيس مشروع أعرج ووحيد : رابطة، أو دولة، للدفاع عن بعض حقوقنا فقط !

وليكن ان هذا العقوق سينضاف الى سجلاتنا المحشوة بالمخالفات والخطايا : فقط... علينا ان نؤمن بأنّنا نقوم بعمل إنساني بالغ الاهمية، قد يفضي بنا الى تأسيس حزب طريف مهمته «تحرير الله» من هؤلاء البررة الذين لا يخطئون.

وواضح ان أولى المهمات التي ستطرح على هذا الحزب هي الاجابة بشكل عقلاني على السؤال التالي :

- هل ان الله مطلق لا يمكن ان نكتشفه إلا بصفة جزئية ؟ ام انه مجرد كاتب انتهى أمره بمجرد طباعتنا لأعماله الكاملة ؟

.. ومع ذلك

فالارض تدور

فُوجئت بحملة صحفية ـ كالتي تسبق الحروب عادة ـ ضد مقال صدر لي بمجلة «الموقف» عدد 13 بتاريخ السابع من ذي القعدة سنة 1404 هجرية، تحت عنوان «الايدولوجيا والتكنولوجيا» كنت دعوت فيه بعض المؤذنين الى حسن استعمال مضخمات الصوت.

وقد قادت هذه الحملة صحيفتان هما «العمل» و«الأنوار التونسية» ورميتاني بالكفر، والزندقة، والمروق، وبنعوت قروسطيّة أخرى لم أرَ أكثر منها كفرا واستخفافا بالدين منذ مجيىء الاسلام مثل قول أحدهم أنني الشيطان ذاته.

والشيطان ـ فيما أعلم ـ لا يلبس حذاء، ولا يأكل، ولا يكتب بالعربية الفصحى، مثلما أفعل أنا.

فكانت النتيجة ان تم إيقاف «الموقف» ودُعيت صحبة رئيس التحرير الى حاكم التحقيق بتهمة النيل من الدّين.

(إجراءات ألغيت فيما بعد... وهذا يشرّف تونس)

وواضح ان هذه الحملة التي قادها موظفون صغار، هنا وهناك، بدافع إرضاء رؤسائهم (او الاضرار بهم، لا أدري !) تريد ان تستغلّ الحسّ الديني لدى عامة الشعب لتبرير لا شعبية النهج الرأسمالي الذي أصبح واقعا منذ بداية السبعينات والذي ما انفك المدافعون عنه، والمنتفعون منه، يعملون من أجل إقناعنا بأن المكان الطبيعي لأربعة أخماس الشعب هو في أسفل السلم الاجتماعي..

أوَلَمْ يُستعمل الدين في أكثر فترات تاريخنا العربي الاسلامي من أجل خدمة مشروعين لا علاقة لهما بالاسلام وهما : القمع والحيف الاجتماعي ؟

– هل كان الحلاّج كافرا حتى يُصلب ؟

– والخلفاء، من قبله، هل قتلوا لانهم ضد الدين ؟

أجيبوا أيّها الغاضبون حتى لا يتوحّد منطق الظالم مع

منطق المظلوم.

وأسألكم :

- هل أنا غبيّ الى حدّ الكتابة ضد الشعب وضدّ احساسه الدّيني ؟

- هل أن المشروع الملائم لرجل لا يملك سوى قلم مثلي هو النضال ضدّ الشعب ؟

وأسألكم :

- هل كان لا بدّ أن نشقى، ونتعلم، حتى لا نحسن قراءة نصّ أدبي أراد ان يقول بوضوح :

أيّها المؤذن أذّن، واجعل من البوق أداةً لخدمة الدّين، لا أداة ضده.

كلّ من فهم عكس ذلك يكون قد ظلمني.

وقد تعودت بذلك... ولي الله.

# III

# نبيّ من نيجيريا

المذيع الذي مزق أوراق النشرة الاخبارية، في مثل هذا الفصل من العام الميت، أمام سبعين مليون مشاهد نيجيري، بما في ذلك رئيس الدولة، وحرمه، وفرق التدخل السريع، وصاح بأعلى صوته، وكأنه يصارع نمرا فاراً لتوه من احدى حدائق الحيوان :

«لا أستطيع قراءة الكذب»

«وعلى الحكومة ان تقرأه كذبها. بنفسها. اذا ارادت».

هذا المذيع الاسمر،،

ذو الشجاعة الاسطورية،،

والضمير المهني الشاذ،،

يستحق ان يكتب اسمه بماء الذهب على قائمة الانبياء العاديين.

هؤلاء الذين يدخلون التاريخ بكلمة واحدة.

ويقادون الى المقابر من أجل كلمة واحدة.

ويكلف الجيش بحراسة قبورهم خوفا من ان يقول الجن - على لسانهم.

كلمة واحدة !!

انه اللحظة الفاصلة ما بين وظيفتين :

القواد،،

والصحفي.

وما بين راتبين :

راتب يتضاعف بتضاعف نسبة الكذب،

وراتب يتضاءل كلما تضاعفت الحقيقة

...اللحظة التي يحس فيها اي طفل بأنه ادفع اخلاقا من الدولة، وانه يستحق حكاما يتحلون بفضيلة واحدة غير حمل مذيعيهم على تلاوة الكذب، ومواطنيهم على تصديقه، دون شك، أو مساءلة انه...

ولا مانع عندي من ان يضيف القارىء ما طاب له من النعوت، تكريما لهذا الرجل النيجيري، الذي ذكرنا بأن علاقة المواطن الافريقي بتلفازه ليست في النهاية سوى علاقة مستهلك الكذب بمنتجه.

أو بعبارة أقل تطرقا :

علاقة «مواطن في بيته» بمؤسسة وطنية تكذب دائما ويكفيه شرفا انه النبي الوحيد الذي ظهر في زمن التكنولوجيا، لينشر رسالته، مباشرة، على الهواء الطلق.

انها أولى رسالة واقعية منذ صار بامكان القرد ان يصبح انسانا، وبامكان الانسان ان يصير نبيًا،،

وبأمكان النبي ان يصعد الى السماء بدون محرك بخاري

كل الرسالات قبلها كانت ميتافيزيقية الى حدّ اهانة العقل ولأنها كذلك،

فانها جديرة بأن نؤمن بها ايمان العجائز

فقط،،

ولكي نكون من مواطني الجنة،، علينا ان نقوم بالفريضة التالية :

عندما يطل مذيع على الشاشة، ويهدد بافتتاح نشرته الاخبارية،، نستأذن.

ونسرع بإتجاه الحمّام !

# الجحيم

قبل عشرة أيام، ذهبت الى شبابيك الدولة لأتسلم راتبي، فكاد يغمى عليّ من شدة الزحام.

وعدت في اليوم الموالي، وفي اليوم الذي يليه، وكنت ـ في آخر الطابور كمحارب إغريقي، ينظر الى حبيبته الاسيرة وراء القضبان، ولا يستطيع ان يفعل شيئا غير ان يدعو على الذي ألمها، ويرسم لها قبلة في الريح، ثم يكركر ساقيه الجريحتين ويختفي بين النباتات البرية كالحنش المهزوم.

حدث ذلك منذ ان كففت عن ان أكون سارحا ودخلت الوظيفة العمومية من شباك الاحتياج.

وكنت في كل مرة أتساءل :

ـ ما الذي جرى لهذه البلاد ؟

القطار يتأخر، والراتب الشهري يتأخر، وشهادة الحياة تتأخر، وتقرير الطبيب الشرعي يتأخر، والديمقراطية تتأخر، وكل شيء يتأخر بغير حساب ! ؟

وأنت لا تسأل الا لتجيب :

منذ عام لم أر مواطنا يضحك !

الكل هائمون، يتمتمون.

تدمرت اعصابهم من الرشوة، والجهوية، والقوادين، والحجاب، والانتظار والخطب التي لا تقول شيئا، وصاروا يشترون الخضر والغلال والملابس من القواميس بعد ان صعدت الاسعار الى المريخ.

نعم !

كل شيء يسير وكأن تونس تريد، بعد 28 سنة من رحيل الفرنجة، ان تصبح غابة إفريقية عذراء، تنظمها الغريزة والفوضى وتحكمها الغيلان والأفاعي والسباع الجائعة !

فهل يراد لنا بوضوح ان نهب ألسنتنا للقطط، وأعصابنا لبائعي

امطاط، ونصبح شعبا مجنونا، يأكل الحجر والنفايات، وينام على الارصفة ؟

ما الذي تريدون بالضبط :

* طيب، احترموا العباد.

- ان نكون شعبا متمدنا ؟

* هل تمثلتم جان جاك روسو، على الاقل ؟

- ما هو المطلوب بالضبط منا :

- ان نؤثث عزلة الحزب الواحد، ونذوب في حامضه الفوسفوري ؟!

- ان نباهي بتخلفنا في هذا القرن ؟

- ان نقتنع بأننا بلاد متقدمة لان حاكم الشيلي يقتل خمسة آلاف مواطن في السنة، في حين لا نحفر نحن سوى مائة قبر سنويا ؟!!

لقد كان الجحيم نصا..

فأصبح واقعا.

ونحن نريد ان لا ننقرض قبل ان نقيم دليلا على أننا وجدنا في عصر ما من تاريخ البشرية.

فاتروكونا نمضي الى حيث نريد.

# القطار



عندما يكون عمرك ستين عاما، تكون قد قضيت عشرين سنة في فراش النوم
وتسع سنوات امام طاولة الاكل
وثلاث سنين في دورة المياه
وعشر سنوات في ملاطفة زوجتك
وعامين في لعب الورق.
وثلاثة اشهر في احد المستشفيات الحكومية
لا أعرف، تماما، أين قرأت ملخصا لهذا البحث الطريف، الذي قام به عالم اجتماع أمريكي، على عيّنة من الرجال الستينيين، في مدينة نيويورك.
ولو أجري هذا البحث في بلادنا، لكانت إحدى النتائج البارزة، ان التونسي،
الذي لا يملك سيارة خاصة...
او دراجة نارية مشتركة،
يقضّي سبع سنوات في انتظار القطار !!
وسبع سنوات ليست، بالتأكيد، سبع دقائق، أو سبعة أيّام، حتى نعتبر الموضوع تافها، وغير جدير بالمناقشة،
انها تؤهّل اي مولود جديد لان يكون في الصف الاول من التعليم الابتدائي.
وأي حكومة، في العالم الثالث، لان لا تتنازل عن الحكم، عن الحكم، مادام رجالها على قيد الحياة.
ومادامت سبع سنوات تعني سبع سنوات.
وتعادل خمسة وخمسين وأربعمائة وألفي يوما،،
وجب ان يكون تأخّر القطار علامة في تاريخ تونس المعاصرة.
وهنا أقترح على الشركة القومية للسكك الحديدية ان تبدل جميع

قطاراتها :
السريعـة،
والبطيئة،
بنوق وجمال تونسية، لحما ودما.
وهكذا تتوفر لها مواصفات الشركة. أولا.
وملامح «القومية» ثانيا
وما يجعل العودة الى الجمال ضرورة وطنية، هو ان القطار، طيلة معاشرتنا له، (خمس سنوات فيما يخصني)، لم يبرهن على انه أسرع من الجمل، رغم امتيازه بمحركات بخارية صاخبة.
ثم ان الجمال تتناسل.
فيما ان القطارات لا تمارس الجنس أصلا.،
وهذا يساعد المجموعة الوطنية على توفير العملة الصعبة للمشاريع الاقتصادية التي تنتظر الانجاز.
إضافة الى ان الجمل يحتاج الى عامل واحد..
(ويسمّى بالعربية الفصحى : الحادي).
في حين ان القطار يتطلب رئيسا مديرا عاما،
وموظفين،
وعمّالا،
ومجلس تأديب،
ولجنة متناصفة،
ونقابة.
هذا رأي متواضع، أسوقه بكل أدب، وسأسلمه الى السيد مدير القطار، بصفة شخصية.
بعد سبع سنـوات...
طبعـا!

# الغميضة

أستطيع ان أجزم هذه المرة ودون شعور بالحاجة الى دليل ان اعضاء الحكومة كانوا صغارا في وقت ما.

وكيف لهم ان لا يكونوا كذلك وقد مر جميعهم بالابتدائية ورجعوا «فرحين مسرورين» في خاتمة انشاءاتهم المتوسطة ؟

واستطيع ان اجزم ايضا، انهم لعبوا الغميضة في تلك السن مثل جميع أطفال تونس.

واستطيع ان أجزم، أخيرا، انهم كانوا وهم يلعبون الغميضة، يلجأون احيانا الى حيلة بريئة ومعروفة، تتمثل في عدم احكام تغطية العينين للوصول بيسر الى اماكن الاطفال المختبئين وراء السدر، او خلف الجدران.. وفي ذلك ما يضع حدا لعبثية البحث الذي تمثل الرؤية أداته الضرورية.

ويبدو لي ان هذه الحيلة تحولت، في النهاية، الى سلوك سياسي متواتر، يمكن نعت صاحبه بالذي يرى ولا يرى.

ترى الحكومة ان الاستعمار الفرنسي والحكومات السابقة عليها مسؤولة عن تقسيم المجتمع الى أقلية تأكل ولا تنتج، وأكثرية تنتج ولا تأكل.

ولا ترى ان كل ما فعلته، الى حد الآن، هو تبرير هذا التقسيم وتقنينه وحمل المواطنين على اعتباره قدرا لا مفر من الرضوخ له !

ترى الحكومة ان القبلية والجهوية خطر على الوحدة الوطنية (هي تقول : القومية !) ولا ترى انها تتعامل مع بعض الجهات كما يتعامل الآباء مع أبنائهم المدللين، فيما تتعامل مع بقية الجهات تماما مثل تعامل أولئك مع أطفال الجيران ! ترى الحكومة ان الاعلان العالمي لحقوق الانسان جدير بالموافقة عليه، ولا ترى انها تنتهكه بانتظام.

ترى الحكومة أنها لا ترى،

ولا ترى انها ترى جيدا !

ولو كان هذا «التناقض» تناقضا حقيقيا يكفي التفطن اليه حتى ينسجم الخطاب مع الممارسة، لكان أقصى اليسار هو المكان الطبيعي للحكومة !

غير ان المأساة ماثلة في الطبيعة الارادية لهذا «التناقض» الذي يحدده التصور الوثوقي لتنظيم المجتمع.

وأمام خطاب «جيد» باستمرار عن اختيارات رديئة باستمرار، تصبح مناقشة هذا الخطاب «الجيد» نوعا من المعارضة المرتاحة، ويصير مبرر وجود مثقفين لتفطين الحكومة بذلك كمبرر حشد مختصي العالم في ميدان الرياضيات لاثبات وجود الصفر.

وإنك لا تستطيع، في ذات اللحظة ان ترى ولا ترى الا اذا كنت تلعب الغميضة على المنوال الطفولي المذكور سابقا.

# المتسوّل المرح

ركب القطار كعادته كل صباح، وراح يدعو بالتوبة والغفران لجميع الركاب.

انه لا يستثني أحدا، ولا يحرج أحدا.

كان مطلبه بسيطا طيلة الدعاء، ولا أذكر انه تجاوز يوما ثمن رغيف أو تكلفة دواء لطفله الصغير.

طلب منه مراقب التذاكر ان يستظهر بتذكرته، فبحث في جيوبه الكثيرة برهة من الزمن، ثم ناوله إيّاها ويداه ترتعشان مثل اي عاشق يتأهب لمفاتحة عشيقته في أمر مصيري.

كان مستعدا، في تلك اللحظة، لان يفعل اي شيء ما عدا ان ينزل، فقد علّمته التجربة ان الارصفة لا تنبت الفضّة والذهب، وان الاكل واجب وطني قبل ان يكون حاجة بيولوجية.

لكن المراقب الذي يعرفه جيدا، لم يعتبره راكبا عاديا، وأمره بالنزول في المحطة الموالية، فاغتاظ الرجل، وانتقل بسرعة عجيبة من الدّعاء الى الخطابة :

- «يعطيك الصحة» !

أكفّ عن العمل وأنزل ؟

وعلي، والازهر (إبناه) من سيشتري لهما الطعام ؟»

لم يجد المراقب جملة في لسانه أو سندا بين الركاب،، فانصرف مهرولا الى العربة الامامية وبريق عينيه يكاد ينطفىء من شدة الدهشة والخجل.

- «هم يهرّبون الاموال الى سويسرا وأنا أكفّ عن العمل ! يعطيك الصحة !» وواصل المتسول خطبته بصوت لا يقل حماسة عن أصوات مذيعي البلدان المتخلفة، انفجر الركاب بالضحك.

بعضهم غص،

وبعضهم شرق،،

وكانت كل الكلمات التي تبادلوها فيما بينهم تقديرا منهم لحسّه السياسي ووعيه الشقّي... حتى ان احدهم تساءل علنا :
- لماذا لا يسمح القانون لهذا المتسول بتقديم شكوى ضد شركة القطار ؟

والتهمة كما يراها هي الاعتداء على موظف أثناء العمل.

وعلّل رأيه بأن عدد المتسولين يفوق بكثير عدد عمال بعض القطاعات الحية، مما يجعل احترامهم أمرا متأكدا في انتظار ان تعترف الدولة بانهم خلقوا ليكونوا على عكس ما هم عليه الآن.

ضحك المتسول باحتشام، ثم انتحى كرسيا قذرا في آخر العربة، وراح يتأمل المباني المصطفة في غير نظام على طول السكة الحديدية.

أكيد انه أقام مقارنة سريعة بين تلك المباني ومسكنه الحقير،، وتمنى ان لا يموت قبل ان يكون له بيت يستطيع ان ينام فيه دون ان يبتل كلما عنّ للسّماء ان تغضب او تزيد...

- ما الذي حدث ؟
- هل اضرب الرجل عن العمل ؟

نعم هكذا ذهب الظن بأحد الركاب، فغادر مكانه بإتجاه المتسول ثم ناوله قطعة نقدية، وتكررت العملية مع اكثر من راكب وراكبة، الى ان توقف القطار وافرنقع الركاب في أزقة المدينة التي لا تفتح على أفق.

# جرّبوا الغناء

«سيداتي وسادتي... نعتذر عن انقطاع الصوت...».
هذا الاعتذار اليومي، الذي تجتهد المذيعة في جعله مقنعا ويسير الهضم، يصبح بلا معنى اذا كان الصوت المغني هو صوت احد المسؤولين..
لقد صار بامكان اي مواطن، في هذه الارض الطيبة ان يتنبأ بمضمون خطبة هذا المسؤول او ذاك...
يكفي ان ينظر جيدا الى شفتي الخطيب.
الى بريق عينيه وحركات يديه.
ان يقيس درجة انبساطه او تشنّجه.
ان يتذكر مكان ولادته وموقعه في اللعبة السياسية... حتى يهتدي، وبيسر تامّ، الى ما حجبه عنه انقطاع الصوت.
وكيف لأحد ان يخفق في هذا التمرين البسيط والخطاب الرسمي، لا يزال، منذ تسع وعشرين سنة بلياليها، يطقطق علكته البائتة، ويباهي بقدمه... حتى لكأن جميع التونسيين الذين ولدوا بعد رحيل الفرنجة كان ذنبهم انهم تأخروا عن الخروج من بطون أمهاتهم، أو كان ذنب آبائهم أنهم لم يتزوجوا قبل الختان ؟!!.
- «تونس بخير».
- «لم يعد هناك فقراء».
- «كل شيء على ما يرام».
حسنا ! هذه النغمة لا تحب ان تعترف بسقطاتها الايقاعية.
لكن أليس من حقنا ان نطالب هؤلاء الخطباء بأن يتركونا نتذوق طعم الشاي المنزلي، ونلاطف ابناءنا، دون ان يخلعوا علينا الشاشة ويعكروا سهراتنا العائلية.
اننا لا نطلب منهم ان يضربوا عن الحكم.
فقط، نطلب منهم، في مرحلة أولى، ان يجعلوا خطبهم اقل ازعاجا

وأكثر انتاجية مما هي عليه الان.

كيف ؟

كأن يسلموا نصوص هذه الخطب الى أشهر الموسيقيين والملحنين قبل شهر من موعد القائها... ثم يغنونها أمام الجمهور بدل ان يرتجلوها كيفما اتفق ساعتها، يمكن ان يستمع كل منا الى مطربه المفضل... بكثير من الاهتمام.

# هل نؤجل سنة 1986 ؟

أكيد ان الانتخابات التشريعية القادمة ستجري في جوّ ديموقراطي لا غبار عليه.

فكل الاحزاب السياسية، المعلنة، والخفية، والعاملة تحت الارض، تحصلت على تأشيرة قانونية، ولم يحرم إثنان من ممارسة حق التجمع، وحق التظاهر المنظم بالطريق العام.

حتى اللاجئين والمساجين السياسيين عادوا الى بيوتهم وباشروا معارضتهم العلنية للنظام.

وكل هذه الاحزاب اصبحت تملك مقرات خاصة.

وصحفا ومجلات ناطقة باسمها.

وحصصا منتظمة بالاذاعة والتلفزة.

وصار بامكان قادتها، ومنخرطيها، وشعرائها، ان يقولوا للشعب ما يريدون قوله، بدون رقابة او خوف من التتبعات العدلية... ويرجع الفضل في ذلك الى ثورية قانون الصحافة الجديد الذي صدر منذ مدة فأنسانا ـ بسرعة ـ وحشية القانون القديم.

أو لم يكن هذا الاخير يستعمل نفس علامات المرور لتنظيم حركة اللسان المحلّي... حتى ان الاقلام الزرقاء كادت تختفي من مكتبات المدينة، لتعوضها الاقلام الحمراء والبيضاء... التي لا تقول شيئا.

وأمام هذا التحول الحضاري، الطارىء على الحياة السياسية ببلادنا، لا يسعني ـ شخصيا ـ الا ان ادعو كل الاطراف الى المحافظة على هذه المنجزات الديموقراطية حتى سنة 1986، على الاقل.

ان التهاون في الدفاع عنها هو إلغاء لسنة 1986 من تاريخ تونس.

ولا اعتقد ان احد يقدر، بعد ذلك على البدء من جديد، وعلى النضال من اجل تحقيق ما حققه منذ سنوات خلت، أو اصلاح ما

افسده عندما كان في السلطة.

وإلغاء 1986 من تاريخ تونس هو المعادل الموضوعي لتعويضها بأيّ عام سبقها، او بأية سنة قد تليها، ولا مكان فيهما لمشروع سياسي اسمه : الديموقراطية.

وهو أيضا، او بالاضافة الى ذلك تلبية لرغبة ذلك الثري الذي صرح لمجلة «افريقيا الفتية»، في العام الماضي، بانه لا يطمئن على تجارته الا حين يحكمه جنرال... يكفي ان تشع نجومه على الشاشة الصغيرة حتى تنطفىء عيون الفقراء، ويرتفع الخوف الى درجة الواجب !.

أكيد ان هذا الثري - المحترم - يملك معملاً لخياطة الملابس العسكرية،،، والا لتمنّى - مثلا - ان يحكمه اي دكتاتور بلباس آخر.

ولافساد حلم هذا الثري ودكتاتوره، علينا ان نصل - أولا - الى سنة 1986، حتى نجعل منها - بعد ذلك - سنة مغايرة لسنة 1981.

كيف ؟

- بالمحافظة على المنجزات الديموقراطية المذكورة أعلاه.

- باعتبار الانتخاب لحظة مقدسة... لا يجوز فيها الاجتهاد، اي اجتهاد.

- بالتزام كل مرشح بالعودة الى الفلاحة، أو الى الوظيفة العمومية اذا لم ينجز ما وعد.

أكيد ان الانتخابات التشريعية القادمة ستكون ديموقراطية.

فهل نؤجل سنة 1986 ؟!

# الشرط القادم

حين نجلس اليه، في مقهى الاحد، ويطرح علينا النادلّ أسئلته المعتادة، ثم يليه باعة الصحف فالمتسولون، والاصدقاء الذين يبحثون عن اصدقائهم يفرك عينيه الجاحظتين بأصابعه العشرة ويشرع في مفاتحتنا بأسراره :

- انا لا أقرأ الكف والصحف والمجلات.

فنقول له بصوت واحد :

- حسنا يا شاطر... وماذا تقرأ اذن ؟

فيجيب :

- أقرأ المستقبل.

كان يكره اسمه ويصرّ على ان ناديه : أيها السيد العرّاف. وكان غالبا ما ينجح في إقناعنا بأنه جدير بهذه التسمية.

افضل حجة قدمها على ذلك ان سياسة البلاد سهلة كالماء. الى درجة انه يمكنه التنبؤ بما سيحدث غدا او بعد غد، دون ان يسقط في الخطإ

والحقيقة ان ثقته بنفسه. مضافة الى بعض نبوءاته التي تحققت (فيضان وادي الفكة، اختفاء بعض الاموال العمومية. نزول الجيش الى الشوارع...) جعلتنا لا نجرؤ على الحديث معه في ما سيحدث.

الى أن34كنا نكتفي بذكر ما حدث. فيكمل هو... الى ان نجد نجد أنفسنا في شهر يناير من عام 1992 ، أو في الساعة العاشرة ليلا من آخر يوم من سنة 2002 ، ثم خارج المقهى بأمرمن النادل الذي يستعدّ لإغلاق الوطن .

أذكر اننا تخاصمنا مرّة، وعلت أصواتنا ، وصورة ذلك ان احدا منا لم يجب على السؤال المطروح من تلقاء نفسه : من سيدفع ثمن القهوة ؟ فقهقه العرّاف. السيد العرّاف، وقال : لا داعي لان ندفع اليوم... ألا ترون معي ان أجورنا تبعث على الضحك ؟!

وكان ذلك كافيا لنسأله عن القاعدة التي سيتم على أساسها، تعديل الاجور في السنوات القادمة، بعد ان استبدت نغمة الانتاج والانتاجية بحسّ الحكومة، واستبد الغضب والخساسة بالاجراء الذين صبروا اكثر مما تطلبه مصلحة الوطن.

أكمل قهوته في جرعة واحدة وقال :

ـ أبشروا !... لن تكون هناك زيادة في الاجور، والشرط القادم هو : الحد من الاستهلاك.

قلنا : وكيف يمكن تحقيق ذلك ؟

قال : ستلحق الحكومة شرطيا بكل أسرة، وتكون مهمته مراقبة الاقتصاد العائلي طبقا لمواصفات المعيشة التي تحددها الحكومة كل سنة.

قلنا :

ـ حسنا يا شاطر !... ألا ترى أنك تبشر بالطاعون والمجاعة ؟

ولكن النادل قطع حديثنا، وأخرج مفتاحه الاسود استعدادا لاغلاق الوطن.

# لنضع أرجلنا
# في أرجلهم

لم يعد هناك موجب للخوف

بعد أيام ستصدر الصحف بعناوين مرحة كشارلي شابلن، وزاهية مثل حديقة في هذا الشهر، وستتجولون بسلام مع أطفالكم ونسائكم، وتأكلون البيتزا وتشربون حليب الدجاج في وضح النهار... كل شيء جاهز، التعليمات صريحة وواضحة، اغصان اللوز ستتحول الى عصيّ، وقوارير الغاز الى قنابل، وكلاب الشرطة الى شرطة اضافية، والاقلام الى سلاح أبيض، وأحمر الشفاه الى صواريخ عابرة للولايات، ومضارب التنس الى شباك للصيد البرّي... كل شيء جاهز للقضاء على الديمقراطية : هذا المجرم الخطير الذي افسد علينا حياتنا، فظللنا نلاحقه - طيلة ثلاثين عاما - دون ان نعثر عليه أو على من يدلّنا عليه.

والمصلحة الوطنية تقتضي - في هذه اللحظة بالذات - ان نؤجل خلافاتنا مع أولي الامر منا، وان نضع أرجلنا في أرجلهم (أيدينا موثوقة الى ظهورنا !) من أجل اعادة الطمأنينة الى هذا البلد الطيب.

ان القاء القبض على هذا المجرم، ثم شنقه عاريا في الساحة العامة، ودفنه هناك بعيدا في المياه الدولية، هو الطريق الوحيد لتقدم البلاد نحو ماضيها السحيق : ذلك الزمان الذي رضعنا فيه مبادىء الفاشية السمحة، واصول العصبية التي لا يستقيم بدونها عمران.

انه لا يليق بنا، بعد كل هذا التاريخ المضيء من التخلف والشعوذة، ان نقبل بالتساكن مع مجرم يريد ان يساوي بين السيد والعبد، بين العمامة والبنطال، بين سوسة وسيدي بوزيد، وأخيرا بين الرجل والمرأة... وهذا ما لا يمكن ان نقبله حتى وان دعت الحاجة الى قتل جميع نسائنا.

أليس ذلك افضل من الحلول الاصلاحية التي تنادي بالاقتصار على حبسهن في البيوت الى جانب القطط والاحذية القديمة ؟

لم يعد هناك موجب للخوف.

الرجال، القوانين، الفتاوي، المذيعون، الصحافة الاجنبية، التاريخ، الأوسمة، لصوص المعرفة، الشعراء الصغار، الخطب، الاكفّ، أطفال المدارس، كواعب المعامل، الاعلام، الخرفان، الكسكسي، الشاي، اللبن، الزرابي، الدقلة في عراجينها.

نعم ! كل شيء جاهز للقضاء على الديموقراطية : هذا المجرم الخطير الذي يريد تهجيرنا من جنّة التخلف الى جحيم الحضارة.

# ضد الموت

يحدث في تونس ما لا يجب ان يحدث !
وأعصابنا ليست حجرا، أو زنكا. حتى تصبح المشنقة. والسجن. والرصاص كلمات عادية في مرتبة صباح الخير.

* * *

يحدث في تونس ما لا يجب ان يحدث !
ونحن لم نُولد لنقدم أجسامنا قربانا لأحد.
لم نولد لنموت كلما أرادت فكرة أو جماعة ان تتأبّد.
لم نولد لنموت في غير الحروب الواجب خوضها.
فهل بهذه السرعة ندخل زمن الموت، بعد ان فشل المشروع الديمقراطي الذي لم يتخطّ عتبة الكلام. والامكان. وسين المستقبل الناتئة كأسنان منشار حديدي غليظ.
هل كتب علينا ان نظل شعبا يمدح علانية ويقهر علانية ؟
وعن أية حكومة سندافع، ولكل حكومة رصيدها الوافر من الضحايا، والعاطلين والرافضين ؟

* * *

يحدث في تونس ما لا يجب ان يحدث !
وليس صحيحا ان القانون الذي لا يسنّه كل الناس، يمكن ان يعلو على كل الناس.
تلك دعوة قديمة حفظناها عن ظهر قلب.
ولو كانت فيها لحظة معقولية واحدة، لما أجبر اصحابها على تكرارها.
وليكن واضحا من الان ان الاسود ليس افضل ألوان الطبيعة.
وان البكاء لا يمكن ان يكون نشيدا وطنيا.
وأن نعمة الصبّا التي تربت عليها آذاننا لا تزيد المواطن الا مزيدا من الوعي بعمق مأساته.

* * *

هل كُتب علينا ان نظلّ نمدح علانية، ونقهر علانية ؟
وأن نعامل دائما على أساس اننا لم نبلغ سن الرشد المدني ؟
أيتها الاخبار : كفّي عن ان تكوني مزعجة ؟
أيها الخراب المسرعُ باتجاه وطني : تأخر قليلا !
افعل اي شيء !
إربط خيط حذائك. على الاقل !
حتى نجد دقيقة واحدة لمنطق آخر غير منطق الرصاص. والسجون. والمشانق.
أيها الخراب المسرح باتجاه بلدي : ما الذي نفعله لنقنعك بأنك ضيف مستحيل

# نعيش نعيش..
# ليحيى الوطن

أنا، مثلا، غير مستعد لاطلاق رصاصة واحدة على اي يريد ان يغزو بلدي.

وأكثر من ذلك، فانني سأجتهد في اقناع اخوتي، الاربعة عشرة بعدم الذهاب الى الحرب، حتى وان كان النصر متوقفا على مجرد حضورهم في الجبهة.

قد اكون غير وطني بالمفهوم اليومي المتداول، وهذا متأكد ولكن ذلك هو، في النهاية جوهر استراتيجيتي العسكرية.

وليس مهما ان أقول كم قهوة شربت وكتابا قرأت، وليلة سهرت، كي أتأكد من ان الوطن مفهوم ارهابي، كلما تقلصت مساحته صارت الحياة فيه منزلة ما بين الحشرية والموت.

هاتوا وطنا واحد لم يكن حكامه سببا في غزوه ؟

أو أجيبوا على هذا السؤال :

- من سيحارب من، حين يمتنع الفقراء عن الالتحاق بالجندية ؟ واذن، فما الداعي الى ان اخسر حياتي من اجل ان اخسرها ثانية ؟! ومن يضمن لي ان الجنة ليست جمهورية من ورق أسسها الانبياء لحمل الناس على الطاعة ؟

ثم ما معنى ان يكون الانسان مهددا في بلاد لا تحترم احياءها ؟ صحيح ان مصطفى صادق الرافعي لم يكن قادرا بمفرده على اخراج الاستعمار الانجليزي من مصر العربية فلجأ مثل جميع الشعراء الى ميتافيزيقا التحريض الموزون والمقفى وكتب قصيدته المشهورة التي اصبحت عندنا فيما بعد نشيدا للثورة :

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في عروقنا الدماء
نموت نموت ليحيا الوطن

ولكن هذا المطلع لم يعد يعني شيئا الان.

ولماذا ؟ ببساطة، لان المستعمر رحل الى ما وراء البحر، ثم عاد في الكتب والافلام الملونة، بحيث ان مقاومته لم تعد تستدعي الموت، مرة أخرى، الموت هو الموت.

والحياة هي اللحظة الوحيدة التي تكسبه دلالة اضافية للحتمية البيولوجية.

ونحن لا نكون جديرين بالموت الا حين نحيا، او نحاول ان نحيا في صراعنا الابدي ضد آلهة الارض والسماء.

ولعله من أولّيات الرغبة في الحياة ان نسارع بتحديث النشيد المذكور اعلاه، وليكن هكذا، مثلا :

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في عروقنا الدماء
نعيش نعيش... ليحيا الوطن.

# IV

# في الفرق بين الكاتب الجماهيري وكاتب الجمهور

على حافّة الدّهشة
داخل فوهة السؤال
خارج رحم الجمهور
ضد بيداغوجية عارضة الازياء
بعيدا عن ثنائية العرض والطلب
مغايرا للديسكوتيك الآلي

وغريبا كزهرة الدّفلى، أو كعواء الذئب، يتشكل الكاتب الذي سيصبح، فيما بعد، كاتبا جماهيريا.

انه ابن نفسه.

ذلك الذي لم يسبقه هودج أو زفاف، أو هذا الذي فتح عينيه على خراب الرّوح، على مطلق الوحشة واليتم، فلم يحس بالحاجة الى اثبات وجوده بما هو غريب عن ايقاع اعصابه ولغته الخصوصيتين.

لذلك فهو لا يكتب لأحد، أو من أجل احد.

لا شيء... لا شيء يهمه ـ في النهاية ـ سوى ان يترجم، بأكثر ما يمكن من الدقة، دقّات قلبه وصرير خطاه، حتى اذا توقف قلبه العابر تحولت الكتابة الى قلب لا يموت.

ولانه كذلك، او يحاول ذلك، فإنه غير معني، اطلاقا، بالاجابة على السؤال الذي لا يسأل :

ـ لمن اكتب ؟

هذا السؤال الذي يفترض وجود ذات خارج الذات. ليسميها : الجمهور. وحده كاتب الجمهور يطرح هذا السؤال قبل ان يشرع في الكتابة.

لان له سلعة... ولابد ان يبيعها.

لان اعجاب الجمهور به هو كل ما يملك من أدلة على انه ليس اسكافيا... او نجارا.. أو شجرة.

لأن التصفيق هو حبره الوحيد...

لانه عاجز عن الاقتناع بأن الجمهور، عدا كونه مصطلحا خطابيا، هو بالاساس وهم اي عدد من الاذواق التي يستحيل عليها ان تتوحد حول جملة أو فكرة، بحكم مواقعها في الارض ومقارباتها للسماء.

وحده كاتب الجمهور ينام مغتربا خارج ضلوعه، مزاحما بذلك صنوه في الوظيفة، وجهه الاخر :

الكاتب العمومي الذي يشترك مع الحجر في فضيلة واحدة هي : عدم الابداع.

اما الكاتب الجماهيري فانه يكتب... وكفى.

ولانه ليس نبيا، أو كائنا خارقا، ولان جذوره ضاربة في قلب الارض، فان علاقة القارىء به لا يمكن ان تكون الا علاقة حب أو كراهية.

نريد محبين جيدين

وأعداء جدّين

تلك هي الصرخة الكامنة في كتابات العمالقة الذين رسموا كل هذه النجوم، وهذه الغيوم، لتهتدي الانسانية الى شكلها الملائم : الى الحريـة.

# رسالة الى الشركة التونسية لنهب الكتّاب

السيد...

لا داعي للتحية، وبعد

لم نقرأ في أدبياتك ما يثبت ذلك.

كنّا دائما نقرأ عكس ذلك :

كلاما كالعسل

وأفكارا موغلة في تمجيد العدل.

أكيد اذن (وليكن الامر واضحا من البداية) انك لا تناضل من اجل تجويع الناس، الجوع قضية خاسرة لا تستحق ان يموت من اجلها احد..

ولكن سلوكك تجاه كتاب البلد يبعث على الغثيان.

أمس قابلتهم جميعا... كان احدهم يستعد للرحيل، والبقية يلعنون الصدفة التي جاءت بهم للكتابة، واحد فقط تفحش طويلا في شركتك، فطلبنا منه ان يرفع صوته حتى تسمع الكراسي وقيعان الاشجار المصطفة على الرصيف.

وانت تعرف أيها السيد يا من بيتك يطل على المتوسط واصابع زوجتك تكاد تحترق من الذهب، ان لا شيء في هذا البلد الطيب يباع بالمجان :

الكتب، الورق، الاقلام، الشمع، السجائر، دواء الحمى، الشاي، البيرة... حتى الباص الذي سيعود بهذا الكاتب او ذاك من السجن فان لركوبه ثمنا قد لا يتوفر مع المفاجأة.

وانت تعرف ايضا ان كتابة مقال، أو قصيدة أو كتاب... يتطلب أعواما من القراءة، وشهورا من الأرق، وليالٍ من المرض. وساعات من معاشرة الموت... وأشياء اخرى قد لا تُصدقها لفرط جهلك بالكتابة.

وما دمت تعرف ايها السيد، فلماذا تلتذ بنهب عرق الكتّاب ؟

اي : مالذي يمنعك من تأجيل بناء قصرك السابع، وشراء سيارتك السادسة بعد الاربعين.. الى اليوم الموالي ؟

سيكون خجل الكتّاب من المطالبة بحقوقهم ودربتهم على الفاقة جزء من الجواب، ولكن الجزء الاكبر لا يفسره سوى الجشع المتأصل فيك، أو الطارىء عليك. هذا الجشع الذي لخص فلسفته في احدث أطروحة لصوصية على الاطلاق : «الكاتب لا يكتب من اجل المال».

فهلا تكرمت علينا أيها السيد بجواب على الاسئلة الموالية :

كيف تكرمت للكاتب ان يأكل بدون مال ؟

وان يتطبب بدون مال ؟

وان يشتري الجريدة التي يكتب فيها بدون مال ؟

وان يشتري الكتاب الذي كتبه بدون مال ؟

وأخيرا : كيف يمكن للكاتب ان يذهب للمقبرة بدون مال ؟

لا داعي للاجابة أيها السيد.. فالكتّاب الذين قابلتهم كفوا عن ان يكونوا مازوخيين.

# الاستقالة

سؤال أول :
ما الذي فعله الحجّاج بن يوسف للشعراء العرب المعاصرين حتى يسبوه في قصائدهم ؟

سؤال آخر:
وأبو لهب، من قبله، هل وأد أخت أحدهم ليهجوه أحد الروّاد على البحر الكامل ؟

سؤال آخير :
مَنْ مِن هؤلاء الشعراء تعشى مع كافور الاخشيدي، أو شرب الشاي في حديقته، فغدر به ؟ ومتى حصل ذلك ؟

إنّنا أمام ظاهرة :
ظاهرة إيقاظ الموتى لتحميلهم مسؤولية ما يفعله الاحياء.
وليس صحيحا ان الرمز - خاصيةَ الشعر الأولى - هو الذي ساهم في نشوئها... فالرَمز، من حيث كونه تكثيفا، يحتاج دائما الى النموذج الارقى ليصبح أكثر حضورا ودلالة.
وبهذا المعنى فان أبا لهب، والحجاج وكافور، لا يصلحون لأن يظلوا رموزا أبدية للبطش أمام ارتقاء آلة القمع العربية الى استعمال التكنولوجيا الحديثة لحمل المواطنين على الطاعة.. اي أمام انحدارهم الى جلادين من الدرجة الثانية.
كما ان الرقابة المفروضة على اللسان العربي لا تبرر هذا التخفي في دهاليز التاريخ، الا اذا كان يراد للشعر ان يكون همسا لا يرتقي الى مرتبة الجهر بالفضيحة.
لقد اصبحت اللعبة مضحكة تماما !

ولو كان كل عيبها انها كذلك لاختلسنا بسمة من هذا الحزن العظيم... غير انها علامة دالة على شروع الشاعر العربي في اخطر مشاريعه المعاصرة : الاستقالة من التاريخ... والجغرافيا.

ولا شك ان الذي قرأ ديوان الشعر العربي المعاصر في مكان أكثر هدوء من محطة القطار، لا شك انه لاحظ ان اغلب الشعراء العرب كانوا على وفاق أو على صمت مع حكامهم المباشرين، وعلى خصام مع الحكام الذين لا تربطهم بهم أية علاقة مدنية أو عسكرية، سواء أكان هؤلاء في التراث السحيق، أو في بعض الدّول العربية المجاورة، أو هناك بعيدا... وراء المحيط.

ومعنى هذا ببساطة، ان هؤلاء الشعراء لا يزالون ظلالا لحكامهم، برغم أضواء الصحافة العربية، المستقيلة هي الأخرى من الزمان والمكان.

ومعنى ذلك ايضا، ان الشاعر العربي. بشكل عام، لم يتجاوز حرفيته اللغوية الى دوره التاريخي في أمّة على حافّة الهاوية وبعد، فليس عسيرا على الشعراء ان يقنعوا الناس بأنهم شعراء.
العسر، كل العسر، في أن يقنعو هم بأنهم شرفاء ...ومناضلون.


البطاطا

كنت أتصور ان الشاعر معنيّ - قبل غيره - بالدفاع عن حرية التعبير، وكنت لا التقي شاعرا، في هذه البلاد الضيقة كقارورة، الا لأسأله بعصبية واضحة :

- ما معنى ان تكون حفيدا لهوميروس، والمتنبي، وهو لدرلين، وناظم حكمت، وانت كجدك القروي، تقدس كل ما لا تقدر سلطة الجهل فيك على فك مغاليقه، وتستنتج ذكاءك من غباء سامعيك، وشعبيتك من نفاق المحيطين بك في تلك الطاولة الرمادية القذرة ؟

- وما فائدة ان تكون شاعرا أصلا، وتقدميا بعد ذلك، وانت تعتقد بعد ان للسان حدودا لا يتجاوزها ؟

نعم، كنت أتمثل الفارق بين الشاعر والرقيب، بين ديونوزوس وأبولون، وبين من يريد تسلق درجات سلم العصيان، ومن يطمح الى كرسي أسود في إدارة سوداء، غير ان ما عانيته أخيرا بسبب الكتابة في هذا الركن بالذات، جعلني أعدّل أوهامي على واقع بعض الشعراء الذين صنعهم الجمهور بسرعة عجيبة، وأقالهم، بنفس السرعة وبعد ان يئس من قدرتهم على كتابة قصيدة جيّدة.

ما الذي حدث ؟

اتصل بي شاعر تونسي، كان بذل جهدا استثنائيا من أجل ان لا يجتمع كتّاب تونس ويصيغوا بيانا مساندا لي، أو مساندا لحرية التعبير على الاقل، ونصحني بعدم الكتابة في اي موضوع لا يُرضي الاخرين.

وعلّل رأيه بان لي إبنا، وعليّ ان أتفرغ لتربيته، اذ لا يعقل، في نظره ان يتحمل الابن تبعات ما يكتبه أبوه وأن تنام زوجة الكاتب لوحدها في انتظار ان يعود حضرته من السجن !

وختم محاضرته الاخلاقية بالنصيحة التالية :

- اذا كان لابد ان تكتب، فدعك من الدّين والسياسة والجنس، واكتب عن البطاطا.

وكان واضحا من صياغته «العلمانية» لنصائحه «الدينية» انه يخاف على نفسه من ان اصبح ضحية.. فأُعرف.

وفاته انه لا يكفي ان يكون الشاعر معروفا حتى يكون شاعرا حقيقيا... وانني وإيّاه، لا نزال تلميذين في مدرسة الشعر العربي التي تعج بالصناع المهرة.

ومفرد العبارة لايليوت الذي لم تلهه عظمة «الارض الخراب» عن الاعتراف بمهارة عزر اباوند، شاعر امريكا الكبير.

وكنت صامتا طيلة اللقاء، أدخن السيجارة تلو السيجارة وعلامات الدهشة تشعَ من عيني الذابلتين.. وكنت كلما أحسست بدبيب إجابة على لساني أغلق فمي، وأتهيّأ للبكاء على هذه الفصيلة من التقدميين الصغار! والان أسأل بهدوء:

لماذا نصحني هذا الواعظ بالكتابة عن البطاطا، ولم ينصحني بالكتابة عن شجرة اللوز، مثلا؟

ربما، لانه يعرف ان شجرة اللوز، تلك التي تزهر كل ربيع، وتتشابك اغصانها في السماء، وعروقها في قاع الارض،، تصلح - على الاقل - لايواء الطيور الهاربة من جحيم العصر..

فيما تصلح البطاطا، التي تعيش في الظلام، للزيادة في وزن الارداف.

فهل ان المشروع الملائم للشاعر العربي، في نهاية هذا القرن، هو ان يصل وزنه الى حدود المائة كيلوغرام؟!

ام ان البطاطا هي اي موضوع تافه، لا تتطلب الكتابة عنه سوى عدم القدرة على الكتابة؟!

# بطاقة تفتيش
# عن أدباء تونس

لم نعرف بعدُ مواقفهم مما سمي بالتفتح الديموقراطي. ومن انتخابات 1 نوفمبر 1981. ومن قضية الخلافة، ومن مشروع التعريب الذي يهدد هويتنا الاوروبية !!

ولا نزال نشتري الصحف كل يوم رغم ما يكلفنا ذلك من أتعاب علّ واحدا منهم يفاجئنا برأي متأخر عن احداث 1 نوفمبر1981 .

اشياء كثيرة حدثت :

- رجال زُجّ بهم في السجن لأنهم يفكرون.
- صحف تعطلت وعاودت الصدور، ثم تعطلت.
- رسوم جمركية (خطايا) على كل تذكرة سفر الى الخارج.
- قتلى برصاص «وطني».

وأدباء تونس جلهم على الاقل ملتحفون بالصمت وكأنهم في معبد بوذيّ او على سرير التبنيج بإحدى الغرف الاستعجالية ! ربما لان السكوت من ذهب (كما يقول المثل البورجوازي).

لكن الاديب لا يسمح له بالصمت الا اذا اعلن صراحة انه غادر الادب الى حرفة أخرى.

وبما ان أدباءنا مصرّون على انهم ما يزالون أدباء، وغير مستعدين للتنازل هكذا ببساطة عن هذه الصفة وجب تذكيرهم بعلّة وجودهم التي تحلو لي ان ألخصها هكذا :

من حق الشعب على أدبائه (الادباء منهم بالخصوص) ان يتخذوا مواقف واضحة من أهم الاحداث السياسية المستجدة بالبلاد.

وطبيعي في مثل هذه الحالة ان لا يلجؤوا الى الاستعارة والتخييل حتى يفهمهم هذا الشعب الذي ما انفكوا يعلنون - شفاهة - ولائهم له وانشغالهم الكلي بتفاصيل همومه اليومية واستعدادهم للموت من اجل ان يروه حرا... كالحمام مثلا.

ثمّة تفاصيل صغيرة لا مرئية غالبا، ومكشوفة أحيانا تستحق ان

نكتب عنها أن «نهبط» أو «نصعد» مما كنا نتصوره مكانا طبيعيا للأديب.

ولسوء الحظ، فان ما كنا نتصوره كذلك ليس سوى وهم شاحب خدعنا طويلا، او كنا نخدع به القارىء لتبرير أحد أمرين، أو كليهما معا :

1 ـ الخوف من مواجهة تفاصيل القمع الذي ينظّم المجتمعات العربية، بدون استثناء، منذ تشكل أول قبيلة على رمال الصحراء.

2 ـ العجز اللغوي عن تسمية اشياء الواقع المتحول. وعن صياغة ارتعاشات الحسّ الجماعي بأكثر ما يمكن من الصدق الفني.

أعني : بأقل ما يمكن من الكذب البلاغي.

ولا مفاجأة حين أدّعي ان كل عادات الكتابة التي يمارسها ادباء تونس، نتاج لهذه التبريدات المرفوضة سلفا.

اي ان عادة الكتابة عندهم لم تؤسس في فضاء حرّ غير مشروط بقوانين وشرعيات سالفة، بل جاءت كاستجابة شبه كلية لهاتين الوضعيتين: وضعية الخوف من مواجهة السلطة من ناحية، ووضعية القصور (او التقصير) اللغوي من ناحية ثانية.

لكن، ما مبرر هذا الكلام ؟

منذ تولّي السيد محمد مزالي رئاسة الحكومة، وتحديدا منذ 1981 لم نقرأ ما يمكن ان نقيم، تأسيسا عليه او تأويلا له. او اجتهادا فيه دلائل على اهتمام أدباء تونس بما يجري على الساحة السياسية مثلا .

# محاولة لتفسير تونس

عجبا !
يتحدثون عن تونس وكأنهم تربّوا في شعابها، وتدثروا بضمائد الزّعتر والخبّاز.
وذاقوا من حليب الماعز ما يكفي لتبرئة الذئاب في كل الحالات !
ولو سألت أحدا من هؤلاء لما اضاف شيئا الى أنها جمهورية حديثة العهد بالاستقلال..
يحدّها شمالا : البحر الابيض
وجنوبا : الصحراء الموقّرة.

* * *

إنها الرغبة المجانية في الحديث المجاني، التي توهمك بأن الجهل لملم حقائبه وعاد مذعورا الى العصر الحجري.
فمن منّا لم يسمع نجارا يتحدث عن ادق تفاصيل القنبلة النترونية ؟!
ولاعب كرة قدم يشرح لجلاسه الدرس السابع والثلاثين في علم الفلك ؟!
و... يستجوب عجوزا عن جريمة إرتكبها غيره... ومات منذ عشرين سنة ؟!
و... يصرخ في العامّة : «حذار ! فالماركسية ضد الله».
وعندما يسألونه : لماذا ؟ يجيب بذكاء رجال السياسة في العالم الثالث :
- لان كارل ماركس كان يأكل لحم الخنزير.
- ولا يبسمل قبل الأكل !

* * *

إذن، ما هي تونس ؟
نتواضع أولا.
ونعلن - صراحة - ان جهلنا بها مشابه لجهل كل الذين كتبوا عنها.

والجهل هنا ليس غريزة فينا
وليس وشما أو علا مة تميزنا عن سكان الارض.
انه ما يجب ان تتحلّى به وانت تكتب عن هذا البلد الطيب :

(1)

تفتح شباك غرفتك، تطلّ على ظلام الحديقة علّ مخبرا يقضّي الليل هناك.

(2)

إذا تبين ان المخبر متخلّ عن أداء واجبه، تغلق النافذة بهدوء، تجلس الى طاولتك الصغيرة، وتختار أيّا من المواضيع التي تريد الكتابة فيها.

(3)

تأمر زوجتك بملازمة الصمت. وتتعهد بالاضراب عن الكلام حتى نهاية المقال.

(4)

تحذف من قاموسك كل المفْردات التي يكرهها قانون الصحافة، ووزارة الداخلية، وحاكم التحقيق.

(5)

تقطع علاقاتك مع كل كلمة قابلة للتأويل، ومع سرب الكلمات التي

تعتبر مسًا بالاخلاق الحميدة وبهيبة رؤساء الدول الشقيقة والصديقة.

(6)

تطرد كل المفردات والصّيغ التي لا تتماشى وتوجه الجريدة التي تكتب فيها.

* * *

بعد كل هذه التراتيب الضرورية لسلامتك وسلامة أمن الدولة، لا يبقى لك سوى الانخراط في أحد الناديين المذكورين تحته :

1 ـ نادي البكم.

2 ـ نادي الهذيان الوطني.

# ثنائيّة الحكم والحلم

كافور قتل المتنبي.
والعكس صحيح ايضا
هذه الجملة تفيد، ببساطة، أن الشاعر العربي القديم كان قادرا على مناقشة فضيلة الكذب عند حاكمه المباشر. وعلى الكتابة في أيّ الاغراض يريد :
ابتداء من نهدي حبيبته، ووجه الشّبه بين فخذيها وصواري القصر الملكي.
وصولا الى التحريض على العصيان المدني والثورة المسلحة، اذا لزم الامر.

* * *

شيء واحد لم يكن قابلا للنقاش.
أو كان السّلطان يناقشه مع صورته في المرآة.
وهذا «الشيء» سؤال في منتهى الوطنية، يمكن تلخيصه في ثلاث مفردات :
- متى يموت الشاعر ؟
- ويمكن للمولعين بالطوبوغرافيا ان يرسموه بشكل عمودي :
متى
يموت
الشاعر ؟
فإذا تبين للسلطان ان الهجاء على البحر البسيط يؤثر على محصول الحنطة.
وأنّ الرثاء على البحر السريع قادر على احياء الموتى.
وان قصيدة النثر مظاهرة تهدف الى الاطاحة بالاعمدة الكهربائية.
اذا تبين له كل ذلك، يقول للشاعر :
- متْ !

ـفيموت.

* * *

هكذا كانت العلاقة بين الشاعر والقائم بأمر الله في أعناق المسلمين :

1 ـ طرفة بن العبد هجا ملك الحيرة، فأمر له بمكافأة على ان يتسلمها من عامل البحرين بعد الاستظهار بكتاب هذا نصه : «بإسمك اللهم. من عمر ابن هند الى المكعبر : اذا أتاك كتابي هذا مع طرفة فاقطع يديه ورجليه. ثم أدفنه حيا».

وقُتل طرفـة.

2 ـ الشنفرى نزل من مغارته الجبلية ليشرب. فقتلوه.

3 ـ آمنة الثقفية سجنها معاوية بن أبي سفيان، وأطردها من البلاد، فقتلها الطاعون.

4 ـ ابن المعتز سجنه المقتدر، ثم أمر خادمه بخنقه، ونُقل الى اهله ملفوفا في كساء.

* * *

نعـم !

هكـذا !

تمامـا !

كانت العلاقة بين الكلمة والسيف.

بين من يحلم ومن يحكم.

ولو أحصينا عدد الشعراء الذين قُتلوا. أو سجنوا. أو مُثل بجثتهم في الاسواق. لامكن إيجاد شعب طريف لاكبر جزيرة شاغرة بالمحيط الهندي !!

# الكتابة لقارئ واحد

نحن نفهم لماذا ترتعد فرائص الانظمة العسكريّة، وتتطاير أزرار بدلاتها المذهبة، بمجرد التيقن من وجود مبدعين في البلدان التي تحكمها. وأكثر من ذلك فإننا نجد مبررا لهذا الخوف، لان الذي يحفظ تاريخ الحروب، وعمر الاسلحة، وجغرافيا المقابر، ليس له الوقت الماديّ ليجلس، ساعة او ساعتين، أمام قصيدة أو كتاب يعلمانه انه ليس الاه كما يتوهم... وحتى وان فعل فإنه سيمزقها حتما، أو يرميها بالرصاص، لما قد تثير فيه من شعور بالجهل والتطاوس.

ان الانظمة العسكرية لم تنتج، في تاريخها الطويل، سوى انهار من دماء الابرياء، وركام من جماجم البشر.

ولم تكن تستطع الجلوس على العرش الا وهي محاطة بالدبابات والقوادين، ولنقل باختصار إنّ الحاكمِ العسكريِ لا يمكنه ان ينعم بالطمأنينة الا وهو يستقل نعشه الى مملكة الدّود والتراب، حيث العدم يعزف سمفونية الصمت.

لكن هل باستطاعتنا، نحن الذين فهمنا وَحَمَ الحاكم العسكري على المبدع، ان نفهم ايضا خوف الانظمة المدنية من الشعر والكتابة ؟

انها لمفارقة مستحدثة ان يصم الحاكم المدني آذاننا بدفاعه عن حرية التعبير، ثم ينخرط في فضيلة الكتابة، ويقضم من وقت وظيفته وابنائه ما يكفي لتأليف كتاب او رواية، فيما هو يعطل كتب مواطنيه، وينفرد بقراءتها في مكتبه.. وكأنه على الشاعر في

هذه البلاد ان يكتب لقارىء واحد... حتى إشعار آخر !!
ونحن لا نطلب من الحاكم المدني، في هذا الظرف بالذات، ان ينسجم مع نفسه... لاننا بذلك نكون قد دعوناه الى الهروب من كرسيّه الذي يتطلب الجلوس عليه، والدوام فيه، تنوع الخطاب ووحدانية الممارسة، فقط، نطلب منه ان يكون فارسا في اختلافه معنا، والا يستدرجنا الى ما يرفضه الشعر فينا، أعني الذهاب الى حيث تحتجز كتبنا، والاعتذار لمن يحتجزها ولا يجرؤ على اعلان ذلك.
لم يكن مطلوبا منّا، ونحن نسلم كتبنا للناشر ان نصدها برسالة اعتذار عن كتابة الشعر !
ولم نشعر بالحاجة - أصلا - الى طرد الشرطة من مجالسنا حتى نعلن اختلافنا مع السياسة الثقافية للحاكم المدني.
كما أننا لم نبد استعدادا في يوم من الايام، لمناقشة ماهيّة الشعر مع الذين تتناقض مصالحهم مع اللحظة الانسانية التي تفجّره.
وإذن،
فلماذا لا يتقرر مصيرُ كتبنا بشكل واضح حتى نعرف حدود هذا التفتح وملامح هذه الديموقراطية ؟
لقد مللنا هذه الغميضة، ولو كان حجز كتبنا هو كل ما يكفي لانهائها لباركنا هذا الحجز، ولأضربنا لحين عن كتابة الشعر، غير أنه علامة دالة على هول الكارثة التي تحدث بالبلاد .
وليكن واضحا، من الان، ان مستقبل هذا الوطن هو كل ما يشدنا الى العيش فيه، والكتابة عنه، والموت من اجله.
فنحن لم نترك مستقبلنا ورا ءنا حتى نلتفت...

وليس لنا، ولا نحب ان تكون لنا كراسي نقيس طموحاتنا بمقاييس

أرجلها. كل ما نملك هو هذا الوطن، وهذا القلب، وهذا القلم.

ثلاثة لا بد منها للانتساب الى مملكة الشعر والحرية... حيث يصير بامكان اي مواطن ان يقول للحاكم المدني :

أحبك،

أو : أكرهك..

دون ان ينتظر عقابا او مكافأة.

مضربٌ عن الكتابة..

الرجاء عدم الازعاج

عزيزي عبد الحميد :

طلبت مني، أكثر من مرة ان اكتب عن الغارة الاسرائيلية على الفلسطيني وعلى بلادنا، فقلت لك، اكثر من مرة، انني قلق هذه الايام... ولا وقت لي للكتابة عن السياسة وغيرها.

ولكنك عدت أمس الى نفس النغمة... وكأنك لم تسمع حرفا واحدا من كلامي!

وها أنني اعود، اليوم، لأعلمك رسميا بأنني مقر العزم على تخييب ظنك في شخصي.

نعم يا عزيزي!

لن اكتب كلمة واحدة... أطلاقا... ولو أضربت عن الطعام او رميت بنفسك في المتوسط.

لقد تعلمت، حتى الان، كيف انقط بعض الحروف ، كيف اشيد بعض الجمل المفيدة اكثر من اللزوم، كيف أضحك الناس على الوضع القردي الذي يعيشون فيه، كيف اقول للحاكم : اقسم بالله العظيم انني لا احبك، وأخيرا... كيف اكنس ممرات السجن نتيجة لكل ذلك.

ولكنني نسيت ان أتعلم كيف اصمت، كيف أضرب عن الكتابة، كيف اكتب لنفسي أولا... ولنفسي بعد ذلك، كيف أحرم قانون الصحافة من فرصة أخرى للتدخل في شؤون لساني... ومن فرصة أخرى لاستعمار شعوري... ومن فرصة اخرى لقصف مقر مفرداتي... ومن فرصة أخرى لاخماد غضبي على فقطيّة الحاكم وصبر المحكوم... فكان ذلك أعظم خطأ أرتكبه في حياتي... التي لن تطول بالتأكيد.

أرجو ان تكون قد فهمت وتفهمت يا عزيزي... وألاّ تعود ابدا الى طلبك القديم.

ثم لماذا تصر على ان تقرأ لي ؟

وهل تعتقد فعلا، ان ما سأكتبه يمكن ان يحول هزيمتنا الى انتصار ؟

وماذا لو قلت لك ان الطائرات الاسرائيلية مرّت فوق رأسي... وان كل ما استطيع كتابته عن هذا الموضوع هو كل ما لا تستطيع الصحف نشره، والمواطنون تداوله، والمعارضة تبنّيه، والحكومة غفرانه ؟!

وهل ستعفيني من تهمة الجنون حين أقول : لا بد من عدم التعويل على خدمات الجرذ والابابيل.

لابد من الاعتراف ببعض فضائل الفوضى.

لابد من تقديم قضية في الطلاق ضد... أمريكا.

لابد من اقتسام الارض مع الفلسطيني الذي أصبح يملك مقبرة بجانبنا.

لابد من كتابة عرائض للاحتجاج على كتابة العرائض.

لابد من غلق مقرّ الاذاعة والتلفزة وتحويله الى عمارات للسكن.

لابد من استغلال الصدور والظهور لكتابة الشعارات الواجبة في كل مرحلة.

لابد من الذي لا بدّ منه.

مرة أخرى... أرجو ان تكون قد فهمت وتفهمت يا عزيزي... وألاّ تضطرني لتعييرك بالعبث وقلّة الجدية..

انك تتصور - دائما - ان الكتابة - في هذا الزمان والمكان - عمل هيّن.. مثل قطف الثمار وتبييض الجدران.

وهذا كاف، بمفرده، للقضاء على مبرر صناعة الحبر والورق !

لا يحب الكاتب ان يرحل، ولكن الرياح المغيرة من كل فج، ترغمه

# في ضيافة العمّال

لا يحب الكاتب ان يرحل، ولكن الرياح المغيرة من كل فج، ترغمه على ذلك، تقلع أوتاد خيمته، في لحظة مفاجئة، وتجبره على السفر الطويل.

الى أيـن ؟

الى منطقة الشهادة الادبية، حيث يصير الامتناع عن قول الحقيقة مدخلا للموت، والتخفي في جلباب البلاغة علامة جبن ونفاق، والتوافق مع الضغوطات المسلطة على مروّج الكلام ضربا من المازوخية والعتالة.

أبدا ، منذ زمن طويل، لم يحدث ان حزم الكاتب ذكرياته وصور الاهل والتراب، ورحل عن وقته او عن وطنه، دونما سبب أو مصيبة.

قوانين جائرة
تدمير يومي للاعصاب
أعراف لحذف الكلام من الكلام
حرفيّة مبالغ في تخلفها
خطط تهجير محكمة

... تلك ضريبة الكلمة - وتلك هي الكماليات المتوفرة للكاتب، هنا وهناك، في هذه البلدان الصغيرة والكثيرة، التي تتسكع خارج الحضارة والتاريخ، وتعيش عالة على التراث السحيق.

أبدا ، لم يحدث منذ زمن طويل، ان امضى الكاتب على قرار تهجيره ، او على وثيقة نفيه الى جحيم الفرجة والصمت.

لم يفكر حتى في امكان حدوث ذلك

ولكنّ الذي حدث انه اصبح مؤمنا ، اكثر من اي وقت مات، بأولوية منطقين على منطقين :

الحبر على النبيذ
والقلم على السيف

لقد كبر على ايقاعات مأساوية ويستحيل محوها ، هكذا بجرة قلم، من الذاكرة :

خطى أبيه العائد من العمل بأجرة لا تكفي لشراء خبزتين
أصوات المتسولين في كل بلدة
دوي القنابل المسيلة للدموع والدماء
سحر القصور، المتناثرة كقطع النرد ، على شواطىء المتوسط
ألوان صناديق الاقتراع المغلقة على الفضيحة
سهم الاسعار الذي يكاد يغزو الكواكب القصية

وليس صدفة ان ينزل الكاتب، بعد كل هذا الذي حدث، ضيفا على الاجراء

إنه واحد منهم
أولا : لأنه يقاسمهم نفس الصفة
وثانيا : لانه شديد الثقة بقدرتهم التاريخية على صياغة علاقتهم برأس المال، بالشكل الذي يحلو لهم، وتخلصهم نهائيا من العبودية الحديثة
وأخيرا : لكونه يرغب، حقيقة في ذلك

الانتساب للاجراء ليس هواية فلي هذه الحالة. كما انه ليس قرارا يتخذه الكاتب للتباهي به امام كتبة البلاط

انه صفة لطبيعة العلاقة المهنية ـ أكاد اقول الوجودية ـ التي تربطه بالدولة

وبديهة ان الكتابة التي لا يهمها دفع هذه العلاقة الى اطارها الانساني الممكن، والتشهير بكل العوائق التي تمنعها من ان تكون كذلك، هي كتابة لا تقول شيئا ، ولا تستحق القراءة، حتى مجرد القراءة.

# ما الذي بين يديك: قلم أم سوط ؟

«أخسر اصدقاء ـ أكسب اصدقاء ـ هذا، بالأحرى، يفرحني ثمة علاقات يكون موتها أحيانا أكثر جمالا من ولادتها»

* أدونيــس

كتّاب صغار لدولة صغيرة ـ اسماء خاوية كأثداء العجائز أو كالقرب العطشى. خبراء مجاملة نظامون بلا قضية، ثوريون بشهادة مراياهم المهشمة، مدّاحون بعد المتنبي (!).

كلهم. نعم كلهم متحالفون، هذه الاعوام النكدة، لا للاجابة بصمت عال على سؤال صاد :

«كيف يمكن التوصل الى اثبات ضرورة ان يكون الافراد متخلقين في دولة لا أخلاقية بواجباتها» ؟

بل من اجل تدليس تونس، والكذب علينا : نحن الذين لم نصادف، في مسيرتنا الطويلة، سوى حقيقة واحدة، وهي انعدام الصدق والابداع في اغلب ما نقرأ، وما لا نقرأ.

هكذا نحن في علائقنا، الخفية والمعلنة، مع هذه الحيوانات العاقلة، نقرأ، ونحاول ان لا تنطلي علينا الريطوريقا، وفيما نحن نستجمع الكيان للدفاع عن بعض ما قرأنا، يفاجئنا نفس الكاتب ـ ومن الغد ـ بردفين يندسّان عميقا في كرسي الانتهازية، أو ببيان ادانة للقلم الذي كتب به قبل يوم !

وليس صدفة ان يلتجأ هؤلاء الى تزوير ارادتنا، ماداموا لم يؤسسوا، منذ اكتشافهم للحبر، موقفا، أو مشروع موقف، من هذا السجن الذي تختلط حدوده بحدود المرحلة.

هذا السجن، ذي الابواب الحديدية المرعبة، الذي شيدوا ركائزه الشعرية والنثرية واضفوا عليه بكتاباتهم العجلى، علة أخرى للوجود... حتى كادت تتحول بلادنا، ذات القوانين المرة، والخمر

اللذيذ، الى مقاطعة من مقاطعات الجنّة، في كتبهم النائمة... وراء زجاج المكتبات النائمة،
معان بائتة بألفاظ باهتة.
كتّاب متوسطون لدولة متوسطية
كلهم، نعم كلهم، وحسب الترتيب :المدّاح، فالمغمى عليه تاريخيا، تسلموا تذاكر السفر الى مقابر الادب.
وككل مرة، كانت تكلفة هذه التذاكر / الجوائز تستل من جيوب البدو، او تُسحب ـ آخر الليل ـ من خزينة الشعب، لتكافىء كتبا لا تصلح الا لأحد أمرين :
لف الحمص وحبّات عبّاد الشمس
أو تنظيف برنس ابن خلدون من غبار العصر
كتب بلا قراء
كتّاب غير منحازين لدولة غير منحازة !
لا فرق بين أقلامهم الخشبية الغليظة، وبين سياط مدمية للظهور.
وليكن ان عاما من الصراحة سيهب على هذه البلاد، ليكنس شوارعها وخماراتها ونواديها، من الاسئلة الركيكة والاقلام المتثائبة.
وليكن اه جيلا جديدا سيقفز من قبره الجماعي الموحش، تماما مثل النمر الهائج او الثور المجروح، ويسكن الفاقة والحمى، حتى يتطاير شرر الابداع من أصابعه وخطاه... فتضاء الاحراض والمدن... ولا يبقى سؤال بدون فيلسوف، أو خراب بدون قصاص، او جميلة من غير شاعر.
اماما !
اماما ايها الحفاة وآكلي المرار !
فقد آن لهذه البلاد ـ العذراء ديمقراطيا وابداعيا ـ ان تحبل بتوأمين.

# الجمل لا يتوقف في الصحراء

نسيت ان أودعكم قبل ان أنقطع عن الكتابة

وقبل ان أقولها، دعوني أباغتكم بسر طالما سعيت الى كتمانه: لقد سرقت مواضيع كل كتاباتي من أحاديثي معكم ومع أناس آخرين، بحيث استطيع ان اقول الان ودون تنصل من مسؤولية ما كتبت انني لم افعل شيئا يستحق هذا التبجيل، الذي حدا ببعضكم الى تقبيلي أمام الناس... بدعوى انني اكتب جيدا.

وكم كنت أود ان يتكرر هذا السيناريو الى ما لا نهاية: أنتم تتكلمون، وأنا اسرق أفكاركم، ثم اصنع منها زاوية أسبوعية تشبهكم ولا تكذب عليكم،،، فتعجبون بها، أو تحتجون على ما يبدو لكم مزعجا فيها،،، لكن مصائب كثيرة حالت دون ذلك.

وعلى أيّ حال فلست اول كاتب ينصح بالكف عن الكتابة، وليست البلاد جميلة حتى لا يليق بها ان يلجأ كتابها الى الخمرة والحشيش، أو يجنوا مرة واحدة!

قبل اكثر من قرن أرسل شارل بودلير خطابا قصيرا الى مدير المجلة الوطنية بباريس يقول فيه: «كنت قلت لك ألغ مقطوعة بكاملها اذا كانت فاصلة تزعجك، لكن لا تلغ الفاصلة، لها مبرر وجود». وبعد قرن وبعض القرن أجدني في حالة مشابهة لهذا الشاعر الملعون، الذي وصلت به الجرأة الى حد مطالبة الدولة بتسليمه بعض البورجوازيين ليضعهم في إسطبله.. ويرتاح!

غير ان ما يجعلني أقل شجاعة منه بالتأكيد هو انني لم أترق بعد الى مرحلة الدفاع عن نقاطي وفواصلي.

فمنذ بدات الكتابة في الصحافة التونسية وأنا في زي عسكري أدافع بالجملة عن مقالاتي.

تصدر؟

أو لا تصدر؟

هكذا، تماما، كان يتم الحوار بيني وبين رؤساء التحرير الذين تعاقبوا على مخيلتي ولم نكن نجد الوقت بالطبع للحديث عن كماليات من نوع الفاصلة والنقطة وقوس العجب.

مثلا : لم يحصل لي شرف تسليم ما اكتب دون مناقشة تستدعي احيانا ان استنجد بأئمة البلاغة، وبالمستحدث من نظريات النقد، علهم يشفعون لي في استعارة او تركيب جديدين !

ايضا، ولماذا لا تعرفون ذلك لم اتمكن من نشر عديد المقالات والقصائد وهي الان في البيت او في الذاكرة تحديدا : لااعرف اين ! فأنا أكره المفاجأة.

والسبب دائما وكما تعرفون او كما يجب ان تعرفوا هو قانون الصحافة.

صحيح انه قانون قروسطي لا يليق بدولة حديثة تنتج البيض الاصطناعي لكن هل يعني ذلك ان نتخذ من رقاعته ذريعة لاشاعة الكتابات المرتعدة خوفا التي يستحي اصحابها من إيقاظ الموتى لتحميلهم مسؤولية ما يفعله الاحياء ؟!

وما هو مبرر وجود الكاتب اذا صارت مهمته شطب ما يكتب او تعديل ما لا يعدل ؟

أصلا والسؤال لبودلير ما نفع الكتابة، صنع اي شيء آخر اذا كان يمكن اكتساب الجنة مرة واحدة ؟

لا أتكلم هنا عن الكتابات السياسية والنصوص الدينية والعرائض النقابية، والبيانات التي تبدأ بنحن الممضين أسفله.

بل اقصد الكتابة الادبية التي تملك منطقها الخصوصي وسماتها المميزة، وهو منطق يصعب ان نخضعه لقانون الصحافة الا اذا كنا ننوي مصادرة المتنبي بدعوى انه قال : «انا الذي نظر الاعمى الى أدبي» في حين ان الاعمى لا يرى !!!

الان فقط يمكن ان اقول ان اعصابي تدمرت من هذا القانون وإنني بحاجة الى خمر وطني وإجازة غير محددة.
الان فقط يمكن ان اجهر بضعفي إزاء هذا الرعب الذي يجمد الحبر في الاقلام، ويحيل الكتابة الى سواد متشابه لا يشير الى كوة في جدار.
لقد قضيت كامل حياتي أتعلم كيف أكتب، وحين صار بامكاني ان اركب جملة مفيدة، جاءوا ليعلموني كيف اكتب الشعر والمقالة.
سأقول كل شيء هناك، حيث تحتجز مجموعتي الشعرية مع شفرات الحلاقة وبنادق الصيد ومسروقات العشرية الفارطة.
وليكن واضحا من الان انني غير مستعد للتنازل عن فاصلة في هذه المجموعة.
إطلاقا، ولو اسعلوا الماء وشربوا الجدوان.
فقط، سأتنازل عن تفاؤلي السياسي، فانا لن اعيش مائة سنة أخرى بالتأكيد حتى أحضر اول انتخابات غير مزورة.
لقد كنت بدويا اكثر من اللازم عندما صدقت ان ارتقاء بعض الادباء الى الحكم سينسينا عداء سابقيهم لكتابات الجيل الجديد.
الذي حصل ايها الغبي انهم وصلوا الى هناك ليصدروا مناشير وزارية تلزم الشبيبة بمطالعة مؤلفاتهم الشخصية !
هكذا كنت أقول لنفسي دائما
وهكذا هي تفاصيل الواقع
ولا أعرف كم صادر الاستعمار الفرنسي من كتاب لأكون موضوعيا اذا أردت المقارنة ؟
ايضا، ولماذا لا أكابر ؟ سأتنازل عن صداقة شعراء تونس الذين لم تثر فيهم مصادرة الشعر أية رغبة في الدهشة، او في الضحك على أنفسهم.

أوليس مخجلا حقا ان يكون منحرف مثلي صديقا لشعراء مؤدبين ؟
الى اللقاء ايها القراء الاعزاء ؟!
حاولت معها كثيرا، ولا زهرة ستلد تلك الدفلى، لقد عرى الماء عروقها ولم يعد يشدها الى الرمل سوى حصاة او ثلاث.
وليكن ان الذي كان من أمر الكتابة تدريب للوعي على الشقاء.
وللقلم على الامقول،
ولحشرجة الميت على الصولفاج
لا شيء لا شيء سنخسره تأخرنا عن السير
الجمل لا يتوقف في الصحراء.
الشمس تمر مرة واحدة في اليوم.
والقمر،
والنجـوم..
هكذا هي الطبيعة التي سميناها، ولم نخش رعودها ورياحها وبراكينها.
الى اللقاء فلست اول من يصمت
ولكنني أول من يضطره الرعب الى ايصال كتاباته بالبريد !

* تونس 29 أكتوبر 1984

# الجالية التونسية
# بتونس

« في وجه العبيد بالغريز ة
والعادة، لا تجدي غير
الصراحة المطلقة»
أنسى الحاج

لم نحسّ بلحاجة الى التذكير بعروبتنا، بمناسبة او بغير مناسبة،لكوننا عربا وما كان متاحا لنا لن نكون غير ذلك.
ولم نر موجبا لاضرب جوع بهدف لفت الناس الى ان اللّغة مُلخص الهوية.

اصلا ، لم ندخر قطرة حبر واحدة، للسخرية من بعض مواطنينا السلفيين، الذين يحلو لهم ان يفضّلوا لغة الضّاد والقرآن علي سائر لغات العالم، ولا يجدون حرجا في مغازلة مراهقات الساحل اللازوردي بالفرنسية القحّة ! وقد فرض علينا كل ذالك ان نجتهد في نصيحة الذين يفاضلون بين لغة وآخرى، بالعودة الى أثداء أمهاتهم، حتى يتعلم ان الانسان كان لغزا، ثم رجلا وامرأة، قبل ان يكون لغته وعصبيته .

فكانت النتيجة ان هرّبنا اللغة من القواميس الى الشعر والحب والنضال، وصوّبنا نهرها بإتجاه البحر :بحرعشّاق التقدم والحرية،حيثما كانوا ،وكيفما نطقوا، في هذه الارض التي نحس بأنها ستسقط فجاة .. فينتهي العالم.
و رغم كل ما سبق،
ورغم اننا نقرأ صاد، وبلزاك، ورامبو، بنفس الشهية التي نقرأ بها أدباء لغتنا،، فإن الاخوة الفرنكوفونيين

(الذين لا يتجاوز عددهم عدد سكان عمارة ذات عشرة طوابق)
لا ينفكون يرددون نشيدهم الحزين :
-«الفرنسية هي طريق التقدم »
حسنا!

سوف ندخر غضبنا للشتاء، ولومنا للعاشقات، لنسأل هؤلاء الذين يخبئون الحقيقة في جيوبهم:
أليست الروسية، والانجليزية، واليابنية، «لغات تقدم» بدورها، طبقا لهذا المنطق ؟
واذا كان ذلك كذلك، فلم كل هذا الالحاح علي الفرنسية؟
لنترك -جانبا- كل ما يعين علي الاجابة:
الاستعمار الفرنسي :القديم والجديد ولع المغلوب بالغالب
الخوف المشروع من الظلاميين المتربّصين بمنجزات العقل البشري.

ولندخل- صراحة- في ما لا يعين علي الاجابة : في تقصير الاخوة الفرنكوفونيينفي في حق تثقيفهم الشخصي.. في قناعتهم المهزوزة التي تعتبر اللغة مجرّد وعاء للفكر والحضارة.. ولا ترتقي بها الي صدارة القضايا المطروحة علي البلدان المتخلفة.. في تحالفهم- الواعي أو غير الواعي- مع السلطة السياسية التي يبدو أنها تخجل من إعلان عروبتها أمام المركز..في سحبهم لاخفاقات اللغة علي مستقبل اللغة..

وأخيرا في جهلهم العظيم لما حققته العربية من انتصارات علي المنطق الفقهي الذي ظل نموذجها«المقدس» بفضل الحقد الدفين الذي

يكنّه رجال الدين ـ عامة ـ للعقل. وواضح اننا لانستطيع ـ في مثل هذه الحالة ـ إلّا ان نهنّىء الجهلة بجهلهم، وننصرف الى مهمتنا.

ومهمّتنا -الان- هي أن نحب بالعربية،، وأن نُضرب بالعربية،، وأن نتظاهر بالعربية،، وأن نثور بالعربية. وأن تكون عربيّتنا- في كل ذلك وبعد كل ذلك- إنسانية.. إنسانية الي أبعد الحدود. عقلانية.. عقلانيّة أكثر من العقل.

8 جوان 1985

# V

## شرح نص

في خطاب منهجي، داخل قاعة مهيأة سلفا للتصفيق، تزينها الاعلام وقائمة الشعارات الفذة التي تم ابداعها خصيصا لعبادة الشخصية، لخص المجاهد الاكبر نظريته تلك في الثقافة والادب بقوله الساخر ذاك :
- «التقدم رهين التكنولوجيا، وليس قصة وأقصوصة!» علما انه يحفظ عن ظهر قلب قصيدة «موت الذئب» للشاعر الفرنسي ألفريد دي فيني، ومولع ايضا بحماسة أبي تمام العربي.
وإذا كان ممكنا تبرير إعجابه بالميتة الدرامية للذئب، الذي يلفظ أنفاسه وهو يلعق دماءه الشخصية في عزلة تامة، فانه من الصعب بمكان ترجمة مثل هذه النظرية المستخفة بالثقافة الى الانجليزية... مثلا.
تقول آخر الأخبار، المنشورة للعموم، ان الصادرات الثقافية البريطانية لهذا العام (كتب، مسلسلات، أفلام، مسرحيات... الخ) درت على خزينة المملكة أموالا فاقت، بكثير صادرات السيارات البريطانية الشهيرة والعادية معا، بما في ذلك «الاستين» و«الرولس رويس» (المقصود طبعا ليس جميس جويس : الروائي) و«الجغوار».
وللتذكير فقط، فان «الجغوار» اسم لنوع من النمور الاكثر شراسة من ذئب ألفريد دي فيني : شاعر تونس السابق. ان استحالة ترجمة هذه النظرية الى اي من اللغات الحية، والميتة ايضا، يعني - في النهاية - ان هذه النظرية موغلة في محلية جهولة لا ترى الثقافة خارج حلقات المدح، والذكر، والتسبيح، المستمرة - حتى الان - بطرق ملتوية تثير الشفقة والقرف.
وليس جديدا، وما من جدة ايضا، في ان يعاد التأكيد، بصرامة على ان القضاء على مثل هذه النظرة الفولكلورية للثقافة يتطلب من

الجميع، سلطة ومنتجين ثقافيين، انجاز انقلاب جذري على سقم القيم الثقافية الذي ظل متكئا، لمدة ثلاثين سنة بشكل مقلوب على جدار الضحالة الممتدة من الصحراء الى البحر، ومن الريف والقرية الى ما يسمى تجاوزا بالمدينة... ذلك ان الفعل الثقافي لا لايمكن ان تكون له فاعلية خارج ما يؤسسه بحرية تحديا للممنوع قليلا وللممنوع أحيانا، وللممنوع كثيرا، وللممنوع اطلاقا، وللممنوعات بشكل عام.

فلم لا نعلن سنة 1989 سنة للثقافة، بعل كل سنوات القحط التي تم تخصيصها للاعتناء بكل شيء ما عدا الثقافة والمثقفين !

# ذهب

لم تكد لجنة التحكيم تعلن عن فوز ميشال خلايفي بالتانيت الذهبي، عن فلمه «عرس الجليل»، حتى دوت في كراسي قاعة الكوليزي صرخات صبية نازحين لتوهم من معسكرات الايديولوجيا الحزينة، فهمنا منها ان ميشال خلايفي «صهيوني» و«خائن للقضية» وأن كالعادة، فلسطين عربية.

هي، بالضبط نفس الصرخات المبحوحة التي سمعناها قبل عامين عندما دمر النوري بوزيد مجمل القناعات الباركة بفيلمه الرائع «ريح السد» دون أن يعتذر لأحد مثل اي مبدع حقيقي.

وهي، بالضبط ايضا، نفس الشعارات التي نسمعها دائما، وسنسمعها دائما، كلما هم مبدع عربي بالايغال في تشريح هزيمته الشخصية، وهزيمة دولته، وهزيمة شعبه ومحيطه.

واذا كنا نتفهم خيبة أمل هؤلاء الصبية في ميشال خلايفي نظرا لكونهم كانوا يتوقعون ان تحل القضية الفلسطينية برمتها داخل قاعة الكوليزي، الكائنة في مدينة تونس، بعيدا عن فلسطين بحوالي 2400 كلم (؟) فإننا لا نستطيع ان نفهم كرامات معلمي هؤلاء الصبية. هؤلاء المعلمون يلوحون دائما بالعلمية .Iيلهم للظاهرة الفنية ولا يجدون حرجا في الالتجاء الى8988في حصن الميتافيزيقا للعياط على ميشال خلايفي الذي كان جدليا بكل المقاييس، فضلا على كونه مبدعا، والمبدع يعسر عليه ان يصدق ما معناه ان الابداع محض عملية انتخابية يقوم بها الشعب للموافقة على العمل الابداعي أو لرفضه مرة واحدة.

لقد كان أولى بمعلمي هؤلاء الصبية، وبأولئك الصبية ايضا، ان يكفوا عن الدعاء على اسرائيل، وعلى الرجعية العربية، وعلى الامبريالية، ويؤمنوا بصحة ذلك الاستنتاج السوسيولوجي الذي يقول ان العرب مهزومون لأنهم مهيؤون للهزيمة.

إنه نفس الاستنتاج الذي أراد ميشال خلايفي ان يصوغه في «عرس الجليل» مضيفا اليه ضرورة «قتل الأب» كمنهاج ممكن للخلاص من الخصاء العام. وليس عسيرا على الفهم ان فكرة قابلية الهزيمة هي التي فرضت ذاك التشريح الذاتي العميق الذي تحول من مقدمة فلسطينية الى خلاصة عربية شاملة.

معلمو أولئك الصبية، وأولئك الصبية ايضا، يملكون مرايا في بيوتهم مخصصة ـ أساسا ـ لعكس الجميل فيهم، يقفون أمامها صباحا وعشيا بشكل دونجواني، ولم يكونوا ليتوقعوا الوقوف أمام شاشة / مرآة يعكس فيها ميشال الفلسطيني أقبح ما في العرب المكبوتين، جنسيا وسياسيا، والمترعين دينا.

لذلك كله رددوا نشيدهم البائس ذاك، ولولا حبهم لفلسطيني لقلنا إنهم لا يحبون فلسطين التي هي بعد كل حساب قضية إبداعية يلجأ اليها وعينا المكبل بخصائه، والمفتوح أبدا على أفق حجارة الطفل الفلسطيني.

فهل نعيد التأكيد، مرة أخرى، على ان الافكار الجميلة لم تعد الانسان، فيما غيرت الافكار السيئة مسيرته من الحيواانية الى اللحظة الانسانية ؟

ألم تكن... الارض تدور... أسوأ جملة في تاريخ البشر الذين تزعجهم الحقيقة مع أنها تدور فعلا مثلما أكد ذلك مرة أخرى مخرج فلم «عرس الجليل» ؟

# رسالة إلى بيروقراطي

(1)

من الشارع نحييك أيها السيد...

وحيثما كنت، في تلك الادارة أو تلك، نود إعلامك بأننا على بينة من مساعيك الدؤوبة لدى بعض الصحف، حتى يتم منعنا نهائيا من الكتابة بعد ان تبين، بما لا يدع مجالا للشك، أننا مواصلون في عدائنا للمدح وللمداحين، وان وظيفتنا الاساسية، بعد البطالة طبعا، تتمثل في رثاء أمثالك رثاء نثريا يليق بمقامك الموزون.

(2)

ثلاثون مرت أيها السيد الطيب وأنت جالس فوق كرسي قديم، قبالة حائط قديم، بجانب هاتف قديم، ذو سكرتير ة قديمة، داخل حذاء قديم، تحت سقف قديم، فوق زربية قديمة، تتلو الامر تلو الامر، وتمضي القرار تلو القرار، وقلبك مشحون بالغيظ على كل من يخالفك الرأي، أنت الذي لا رأي سوى ما يتقضيه وعيك الحانوتي بالزمان والمكان، ولغتك المكتبية النائمة في فراش نائم.

(3)

ثلاثون مرت، ايها السيد الطيب، ونحن نعاني من تطيرك الفطري من الكتابة، ومن عدائك الموروث للكلمة الحرة.

فهل تريد ان تستعمر ألسنتنا ثلاثين سنة أخرى بدافع الغيرة على الوطن، هذا الوطن الذي تبين أننا نحبه أكثر منك لكونك تملكه أكثر منا.

(4)

فماذا تريد بالضبط ؟

وبالضبط : ماذا تريد ايها السيد ؟

(5)

لكن، قبل الاجابة، دعنا نصارحك أيها السيد بأننا لا نرهبك ولا نخافك لكوننا لم ندع يوما ـ مثلك ـ أننا منتجو أفكار جميلة، بل ادعينا دائما اننا منتجو أفكار سيئة، وسيئة فقط.

وحدها الافكار السيئة غيرت تاريخ الحيوان والانسان معا. أما الافكار الجميلة، أيها السيد، فقد كانت في كل الأحوال مرادفة للسكوت والموت.

(6)

تذكر دائما أيها السيد أن فكرة الحرية كانت أسوأ اختراع انساني على أجدادك العبوديين.

(7)

أما اذا لم تستطع ان تتذكر، ايها السيد، وانتابتك نوبة غضب حاد من أفكارنا السيئة فبإمكانك ان تطلب رؤوسنا صراحة، غدا، او بعد غد، قياسا على قول تولتسوي : للقضاء على الفقر يتحتم قتل جميع الفقراء !

وسيكون ذلك افضل لنا من مواصلة سماع أنشودتك الديمقراطية الخالية من كل ما يدل على الديمقراطية.

(8)

من الشارع،

من كرسي عمومي في الشارع، يكلمك الشاعر والكاتب أيها السيد.

فعلام تتغير الفصول وانت واقف كعقارب ساعة معطلة ؟

وعلام تصاب بالزكام كلما تفتحت زهرة في صحراء لغتنا البكماء أو فاح نعنع في شاي الجيران ؟

(9)

وهل كل ما ننتظره منك هو ان تقف خطيبا يوم يوصلنا النعش الى ما كتب لنا من التراب لتذرف على قبورنا دموعك الاصطناعية الخالية من أملاح اللوعة، وتعود الى التنكيل بمن تبقى منا شريدا في هذا الملكوت !

(10)

نعرفك جيدا أيها السيد

وتعرفنا جيدا ايها السيد

ولكن الذي نعرفه معا، وبنفس الدرجة، هو اننا نحتقر بعضنا احتقارا متبادلا.

وفيما انت تحتقرنا لأنك غير قادر على الحب، فاننا نحتقرك لأنك لا شيء.

(11)

الشمس تبزغ يوميا : أيها السيد.

# تاء التأنيث
# إلى بنازير بوتو

(1)

ولو كان النساء كمثل «بوتو»

لفضلت النساء على الرجال

(مع المعذرة للمتنبي)

(2)

ما أجمل إسلام العجم !

شعب بكامله صلح أمره، أخيرا، بانتخاب إمرأة

ما اجمل إسلام العجم !

ها هو يعيد للمرأة، هناك، في آسيا خارج بلاد العرب

ضياء الحق ويبدد ظلام الباطل.

(3)

أذاهب انت الى المرأة... لا تنس «صوتك»، اذن

هكذا كان على نيتشه ان يتكلم عوض ان يمجد «السّوط»

(4)

المرأة مستقبل الرجل

ما أصدق لويس أرغون !

(5)

هل صدفة ان تكون جل الكلمات التي تفيد القوة في اللغة العربية، مؤنثة ؟

... قوة دولة، سلطة، رئاسة، حكومة، ولاية، معتمدية، عمادة... اشتراكية، ديمقراطية، قومية، شيوعية، بورجوازية...

(6)

روى الأصمعي قال :

بينا كنت حاجا الى بيت الله الحرام، في قافلة من نساء ورجال، اذ بأسد يفاجئنا، فارتعد الناس واضطربوا، فذهب احدنا الى هودج

امرأة وقال :

- يا بنيتي ! هذا أسد يحول بيننا والحج !

قالت له :

- قل للأسد : ابنتي فاطمة تقرئك السلام.

قال الاصمعي :

- فوالله ما سمع الاسد كلامها حتى ولّى هاربا.

(7)

ادعى أحدهم، أمام العامة، في وضح النهار ان اسم المرء مشتق من المرأة، ولم يكذبه سيبويه.

(8)

قال ابن عربي شيخ المتصوفة :

«أنا الرحمان شققت لها (المرأة) اسما من إسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

(9)

نحْو :

ان العدد يؤنث مع المذكر. كقولك : سبعة رجال.

ويذكر مع المؤنث، كقولك : سبع نساء.

(10)

تقول العرب : اللغة الام.

ولا تقول : اللغة الاب.

(11)

عليك اذن باقتناء امهات الكتب، وليست آباءها... فهي لم تكتب بعد.

(12)

مهمتك الان، ايها الفتى، ان تكون في خدمة الامة العربية، وليس

في خدمة الاب العربي.

(13)

سيّان ان تذهب الى الجنة أو النار، فكلاهما مؤنث.

(14)

الجمل مذكر.

الامية مؤنث :

تحيا المعرفة !

*أولاد أحمد*

*محمد الغُزّي*

*منصف الوهايبي*

# الأيام بيننا

(1)

يريدون مني، انا الذي لا املك حائطا استظل به، أو حبيبة أقبل جبينها كلما منعتني من تذوق عسل شفتيها، ان أترك الحجر الفلسطيني بلا سند شعري.. وأعود الى الكتابة عن شخوصهم المنطفئة وعن شعرهم الراسب في الفصل الاول من الابتدائية.

يريدون مني ان أنزل من مشنقتي العالية وأتمشى بين جثثهم الملقاة، كيفما أتفق، على رصيف المعرفة.

يريدون مني ان أخصص شتائي البارد هذا للتغزل بجهالتهم المروعة وبحقدهم على كل ما هو جميل في هذا العالم بداية من نوار الدفلى وصولا الى تينك العينين المكحلتين اللتين لم تتركا رجلا داخل عقله.

أعرفهم واحدا واحدا ،

يدخلون الحانات لكي يشربوا قهوة بالحليب ولا يخجلون من إيهام العامة بأنهم شعراء معنيون بالتخطيط الفذ للحداثة والصعلكة !!

وأكثر من أنني أعرفهم واحدا، واحدا، فان شعورا حادا بالشفقة ينتابني كلما عَن للساني السليط، ولقلمي الرائع، ان يشرعا في السخرية من كروشهم المنتفخة التي لا تليق جماليا إلاّ بشاعر في قامة بابلو نيرودا.

بعضهم عاد معي من بغداد الثلاثاء السابق للثلاثاء السابق وبعضهم عاد قبلي بأسبوع.

وعوض ان يعتنوا بإصلاح الاخطاء النحوية، والصرفية، والعروضية، والمعرفية، المنتشرة بكثرة في قصائدهم، فإنهم راحوا يؤلفون الاشاعات والاساطير حول شخصي الذي لا يصلح لأن يكون بطلا الا لمخرجين ساذجين.

أعرفهم واحدا، واحدا...

ومن سوء حظهم انهم عاجزون عن كتابة أكاذيبهم ونشرها على

الصحف، تماما مثل شرطة الاخلاق الحميدة التي يروعها ان يمارس المواطن - بكل لياقة، ما هو مسموح به قانونيا.

أعرفهم واحدا، واحدا...

عندما كنت شاعرا تافها مثلهم كانوا يقبّلونني، ويحبّونني ويسألون عني كلما اختفيت في حانة أو باص.

وعندما بدأت أعتني بجمالية القصيدة، وأصلّي لفرائض الشعر، إتفقوا على محاربتي بإشاعاتهم الخالية من كل خيال.

الايام بيننا ايها الذين أعرفكم واحدا، واحدا. واذا كان لي ان أندم على شيء في حياتي فانني اصرح فورا ان أكبر حماقتي هي أنني غير قادر على كره الاخرين.

ودائما ايها الذين أعرفكم واحدا، واحدا !

ودائما حتى لا يفضحنا الحجر الفلسطيني متلبسين بنشر غسيلنا الوسخ على حبال نميمة واهمة.

(2)

... واذا عادت العقرب عدنا اليها بالنعال.

# حفل تأبين لحفل تكريم

(1)

أخيرا، وتحديدا يوم الجمعة الفارط، وهو اليوم الوحيد، كما هو معلوم، الذي لا يباع فيه الخمر جهارا للمسلمين، في تونس المسلمة، سلّمت الدولة جوائزها التقديرية، والتشجيعية، للمبدعين الذين أبدعوا ـ في نظرها ـ خلال سنة 1986 أيام كان محمد مزالي ورشيد صفر وزيرين أولين، والحبيب بورقيبة رئيسا للجمهورية مدى الحياة.

الاجراءات البوليسية كانت مشددة، وخيالية، الى درجة ان عددا هاما من المدعووين لم يتمكنوا من دخول القاعة.

من بين المكرمين ثمة واحد فقط تغيب عن الحفل.

لم يتغيب بسبب أفكار معارضة، أو بسبب مرض ألمّ به فجأة.

تغيب لأنه كان نائما في مقبرة الزلاج ! الشيء الذي حدا بالمسؤولين المشرفين على الحفل الى تسليم الجائزة الى ابنه، وهو حل معقول طالما ان القانون يحجر زيارة المقابر ووضع الورود على قبور المبدعين !

ودون شك في قدرة احد من المكرمين يسرنا ان نقول فورا ان هذه الجوائز شبيهة تماما بالمنح التي يسلمها التضامن الاجتماعي للعائلات المعوزة لكونها لا تندرج ضمن أفق إبداعي في مخيلة الدولة.

«شيخوخة سعيدة». :

ذلك هو بالضبط ما تريد ان تقوله هذه الجوائز مما يعني أنها محجرة تماما على كل من يبدع في صغره ولو كان في حجم طرفة ابن العبد، أو رامبو، أو ابي القاسم الشابي وثلاثتهم شعراء كتبوا كل ما كتبوه قبل سن الرابعة والعشرين.

حدث هذا التكريم وحرية التفكير والتعبير، على أحسن ما يرام،

وفي صحة جيدة. بدليل اضطرار أم زياد الى الصمت، وهشام جعيط الى تبرير ما يكتب امام حاكم التحقيق، وحسن بن عثمان الى تذكير الوزير الاول بأن كتابه لا يزال محجوزا، والكتاب والصحفيين الى دفع الزكاة للرقيب قبل تركيب أية جملة مفيدة.

مهمتنا ليست الفرح، بالتأكيد، ولذلك كان علينا ان نرى هذا الحفل من زاوية حزينة في انتظار ان يدلنا أحد من هؤلاء «الفرحانين» في كل العهود على مبرر فرحه.

(2)

جيوبنا خاويـة

ومعنوياتنا مرتفعة

(3)

رجـــاء...

لا تتخلفي عن الموعد... مثل المرة الفارطة.

# بضاعة للتصدير

(1)

لا أعرف بالضبط من قال ان الديمقراطية، في بلادنا ، كانت دائما من مشمولات وزارة الشؤون الخارجية، أي انها لم تكن واقعا داخليا بل كانت باستمرار، تتصدر قائمة الصادرات الفلاحية الى الرأي العام الفرنكو ـ أنجلو ـ سكسوني، حتى لا يندم على خروجه مبكرا من المستعمرات القديمة مما يجعله متهما بأنه لم يبق وقتا كافيا لتعليمنا أصول الديمقراطية فيخلق تعلة جديدة للعودة من جديد... وبشكل نهائي.

ويبدو ان الذي قال هذا ـ حسب الفرز الاولي لفوضى الافكار ـ هو : أنا فمثل هذه الافكار الجميلة لا يمكن ان تصدر على احد غيري.

لقد كتبتها قبل ثمان سنوات

وكانت معي الحجج

فلم يصدقني احد !

وكتبتها قبل عام، وكانت معي الحجج، ولم يصدقني أحد.

وآها إني مواصل في كتابتها ، ومعي حجج إضافية، مع علمي بأن لا أحد سيصدقني.

المهم ليس ان يصدقني الآخرون.

بل ان يعترفوا ، في خلواتهم، بأنني محق، وينفوا في زحمة النفاق العلني العام، صحة ما أقول.

تلك هي أهم خصائص الكتابة المجردة من انية طموحها السياسي، والمتشبثة باستراتيجية الضحك على طبقة النبلاء القدم، والجدد ، الذين حولوا الفعل السياسي الى مسرحية سرية ذات نص غامض ومبتور، وممثلين يلعبون كلهم دور البطل، وركح قديم يكاد يتهاوى من كثرة السوس المعشش فيه... مما يجعل استبداله أو حرقه أقرب الى المعقول من مواصلة التمثيل عليه.

(2)

لا أعرف من قال، بالضبط لا تشاهد مسرحية نهايتها معروفة !
ولكن الذي يمكن ان يقول ذلك هو الكاتب، والكاتب فقط. وحده
الكاتب يعرف ان الساسة يأخذون أكاذيبهم الشخصية على انها
حقائق ربانية... فيما يأخذ هو جميع الحقائق على انها محض
أكاذيب.

(3)

ما الداعي لاداء واجب الانتخاب...
والرأي العام العالمي مقتنع بأننا بلد ديمقراطي ؟

# عن الحمائم البيض

(1)

لعنة الله على هؤلاء الفتيـان !

كلما داعبت أصابعهم قيتارة، أو عودا، أو نايا، أو كمانا، أو آلة ايقاع، إلاّ وتحولت القاعة الى حلقة رقص صوفية... تتمايل فيها الأرواح والاجساد بانتشاء تام لم يعهده رفاقنا التقدميون، الذين تربوا على إيقاعات شبه عسكرية بإسم سيمترية ايديولوجية فجة، لا جدل في ما تدعيه من جدلية، وكأنهم يريدون إقناع العالم بأن التقدمية رديفة للفقر الجمالي في عصر اصبح فيه معلوما ان التقدمية فرع من فروع علم الجمال.

(2)

لعنه الله عليهم... مرة أخـرى !

معهم تتحول الحرية من مشروع غير متحقق الى واقع معيش بالفعل. ويأخذك إحساس - وأنت تستمع الى قطعتهم الرائعة «موسيقى الجماهير الكادحة» - الى أنك تسير مع شعبك، ومع شعوب العالم، في مظاهرة كبيرة ونهائية باتجاه نصب الحرية. إيقاعات الاسواق العتيقة، وزنوج افريقيا، وعمال مناجم النحاس بالشيلي : إيقاعات لا حصر لها تتعانق في إتساق نبيل لتجعل الحدود بين المحلي والعالمي متضائلة الحدود ما بين الانسان والانسان.

(3)

تسقط الكلمات الكبيرة !

تحيا الأوتار

تسقط الاسماء !

تحيا المسميات...

من باستطاعته ان يجادل، بعد الان، في ان كمان زكريا لا يشبه

غزالا مجروحا، أو فراشا أزرق، أو دمعة أقحوانة، فليجادل نفسه ازمام مرآة كبيرة مهشمة، أو امام قاموس أثري للكلمات الثورية المنقرضة.

اما كيف تحولت المطرقة، والمنشار والمهراس الى آلات موسيقية تدخلك مباشرة الى إيقاع الشعب الكادح، فذلك سر من أسرار الحمائم البيض الذين فعلوا خيرا بترك الكلام الى العاطلين عن انتاج الفرح، وذهبوا رأسا الى موسيقية الشعر عوض الاكتفاء بإلقاء الشعر مثلما تفعل أغلب الفرق الموسيقية التونسية.

(4)

دو. ري. مي. فا. صول. لا. سي. دو.

لأول مرة يرفض اليساريون أمام بعضهم دون خجل من حركة الجسم المكبل بأسوأ ما في الحضارة العربية الاسلامية، وتترك الرفيقات شعورهن لمشيئة الريح والموسيقى.

لاول مرة نزل قدم في الحضرة، ويصفق المستمع بضلوعه، وينتهي الحفل باعلان استحالة نهايته، ويسأل الطلاب والعمال، والشعراء : كيف سنعود الى بيوتنا وأرواحنا لا تزال ترف كطيور مذبوحة ؟

(5)

يا زكريا :
هذا عنقي...
مُرّ عليه بقوسك،
وإذبحني فوق الصخرة
أو قرب مقام النهوند.

# عنعنة

(1)

دعت الدولة ـ مؤخرا ـ مجموع السكان التونسيين الى الكف نهائيا، عن «القيل والقال» لكونهما ممارسة جماعية للشك تتنافى وشرط استمرار الدولة.

بالمناسبـة :

شرط استمرار الدولة هو إقصاء الشك من كل نشاط عقلي !

الدعوة كانت صارمة هذه المرة، مما يعني ان الدولة بدأت تضج من أسئلة سكانها، وان قرارا استعجاليا بالسجن قد يتخذ ضد ابي حامد الغزالي الذي قال ذات مرة : «الشك طريق الى اليقين».

ومهما يكن من أمر فإنه يعسر علينا ـ نحن الممضين فوقه ـ ان نجد اتساقا كافيا، أو انسجاما مقنعا، بين هذه الدعوة وبين بطاقة تعريف الدولة التي تنص على انها :

ـ عربية : بدء

ـ وإسلامية : أولا

ـ وإفريقية : تاليا

ـ ومتوسطية : ثانيا

وكأن الامر متنازع عليه !

لا نجد اتساقا لسبب اقل من بسيط : وهو ان حضارتنا العربية الاسلامية حضارة عنعنة بامتياز اي : حضارة «قيل وقال».

وبما ان الامر كذلك فانه يتعذر علينا ان نأخذ هذه الدعوة مأخذ الجدّ لكي لا نشجع الدولة على هواية «المقدمات الصحيحة والاستنتاجات الخاطئة».

ولنفترض ـ جدلا ـ اننا وضعنا حداً للقيل والقال هل ستسعدالدولة؟ هل ستكون أحلامها لذيذة؟

بالتأكيد : لا.

لان مصادر أخبارها ـ في تلك الحالة ـ ستتضاءل الى الحد الذي يجعل طاقم مخبريها مهددين بالجوع والبطالة.

لقد اصبح معلوما ان قوة الدولة تكمن في اتساع شبكة معلوماتها وان الثروة المستقبلية ـ بعد النفط ـ هي الخبر، ومن الاسلم، والمعقول، والمحترم، واللائق، ان تخصص الدولة جزءا من وقتها الطويل لاصلاح ما أعوج في سلوكها.

انها لغربة انتحارية ان تتم دعوة السكان الى الكف عن نشر غسيلهم، وفضح أسرارهم والوشاية ببعضهم في المقاهي، والخمارات والفنادق، والحانات، والمباغي، والاسواق حيث يتجمع المخبرون، بشباك كبيرة لاصطياد ما تيسر من القيل والقال.

(2)

ـ متى تبدأ الحقيقة ؟

ـ بعد الكأس التاسعة.

# أسئلة

ما الذي كان سيحدث، بالضبط، لو أفاقت تونس على خبر اقالة بورقيبة يوم 30 نوفمبر عوضا عن اليوم الفاصل بين 6 و8 نوفمبر؟
هل كان المونوبري سيجازف مثلا، بتخفيض اسعار البيع الى حدود 30بالمائة عوض 7 بالمائة ؟

هل كان المسرح الوطني سيعرض مسرحيته «يعيشو شكسبير» على الساعة الثالثة ليلا بدل الساعة السابعة ؟

هل كانت وزارة التربية والتعليم ستأمر المربّين والتلاميذ بغرس ثلاثين شجرة في المدرسة الواحدة عوض سبع شجرات ؟

هل كان ا لبطل الاولمبي محمد القمودي المختص في سباق 5000 متر سيصرح للتلفاز انه متفائل بالرقم الماراتوني 30 بدل تفاؤله بالرقم 7؟

هل كان المفسّرون، و المؤولون، والشرّاح، سيقومون بعمليات الضرب، والطرح، والقسمة، اللازمة للتحصيل على رقم 30 من مجموعة «السبعات» المنتشرة بكثرة في الكتب السماويّة ؟

أسئلة نسوقها، هكذا دون أن نطالب بالإجابة عليها.

ولمزيد التوضيح نعيد المساءلة :

ما الذي كان سيحدث، تحديدا، لو أفاقت تونس، النائمة، على خبر إقالة بورقيبة يوم 29 فيفري بدلا عن اليوم الفاصل بين 6 و 8 نوفمبر؟

هل كان المنذرون للمدح اليومي سيطالبون، في مظاهرة عارمة، بضرورة إدخال تعديل دستوري على شهر فيفري حتى يصبح ذا 29 يوما-كل سنة- حتى يتمكنوا من أداء فريضة المدح سنويا ولا يجبرهم هذا الشهر اللعين على المدح مرة كل أربع سنوات؟

أسئلة نسوقها-هكذا- دون أن نطالب بالإجابة عليها.

ولمزيد التوضيح نعاود المساءلة:

أي مستقبل لبلاد يتصدر المدح والنفاق قائمة صناعاتها الثقيلة؟
بمعنى آخر:
هل المدح والنفاق هنا كل ما يمكن ان يشكل دليلا على ان البلاد لا تسير باتجاه الهاوية؟
و هل الحاجة الى مدّاحين لا تستوجب، من ضمن ما تستوجب، تجديد إطارات المدح، او إعادة رسكلتهم على أقل تقدير، حتى لا أسئلة نسوقها دون ان نطالب بالاجابة عليها.
فقد تعلمنا ان نسأل ...
وتلك عاهتنا.

# الفهرس



## I.



## II.

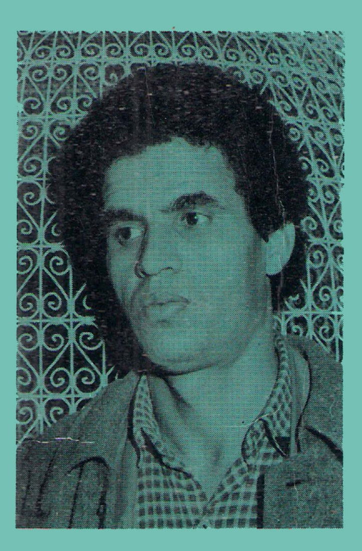
# .III



# .IV

## .V

طبع المطابع الموحدة
المنطقة الصناعية ـــ الشرقية ـــ تونس



يسكنون بعيدا عن
الشعب
بعضهم في قصور
فخمة
وبعضهم في سلسلة
من القبور الفخمة
لا يراهم الشعب ولا
يرونه الا لماماً في
الاحلام المزعجة
وفي الكوابيس
الدورية التي
يتبادلونها، بمناسبة
وبغير مناسبة،
دعما لأواصر
التوازي الطبقي المقرر تاريخيا عليهما.

ولولا أنهم موجودون فعلا لداخلنا الشك في انهم موجودون فعلا، ولحسبناهم كائنات اسطورية لا شيء يدل على وجودها سوى شبق الخيال العلمي العاجز - حتى الان - عن تناول قلم احمر وضبط الخط الفاصل ما بين الشرط الحيواني والشرط الانساني وتحديدا في بلادنا التي تقع، كما هو معلوم في الحد الاقصى من تدهور القدرة الشرائية وفي الحد الادنى من البند المتعلق بحرية التفكير .. الكائن في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

Mouyn